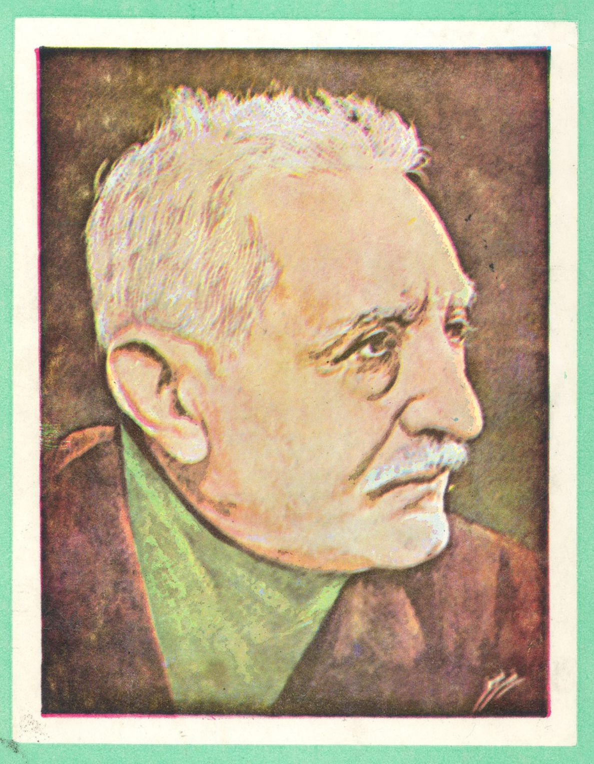
عباس محمود العقاد

ســـارة



منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

محمد العشماوي

ساره

عبّاس محمود العقّاد



منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

أهوأنت ؟..

مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ علـى عبور ذلك الشارع مشياً على قدميه •

وليس الشارع مقفراً أو مخيفا ، لانـه محاط بالعمار مزدحم في جوانبه بالسابلة والسكان •

وليس هو بالبعيد عن طريقه ، لانـه يوشك أن يحتاج اليـه في ذهابه وايابه الى حيث يقيم في ضاحية المدينة •

ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما الى دار الصور المتحركة ، ثم يلتقيان فيه عند خروجهمامنها •

وكانا يجلسان اذا دخلا تلك الدار في مكانين متجاورين ،ولكنهما لا يدخلان اليها ولا يخرجان منها متجاورين • بـل يرسل هـو الى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين في مكان قلما يتغير • ثم يلقاها في ذلك الشارع ، فتأخذ احدى التذكرتين وتسبقه الى الدار ، ويظل هو بضع دقائق في بعض الاندية العامة ، ثم يلحق بها الى المكان المعروف •

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية اذا أحست منـه

اعجابا بهـا أو ثناء عليها ، وتسأله في ذلك أسئلة ذكية خبيثة لا تسهل المغالطة في جوابها ، الا على سبيل المزاح والمداعبة .

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التي تظهر فيها احدى الممثلات :

ـ اذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة .. أتقبلها منها ؟

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب ، وعمد الى العبث والمراوغة .

قال :

ـ وهل من الادب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة ؟

قالت :

ـ دعنا من حديث الادب فما عن هذا أسأل ... أنا أسألك عـن دخيلة نفسك ، أسألك عن رغبتك .. فهل ترحب بتلك القبلة اذا وجدتها ؟

فعاد ثانية الى العبث والمراوغة . وطفق يقول : أما ان كنت أمثل معها على الستار الابيض فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها .. تلـك واجبات الفن يا صديقتي ، ولا تتم الفنون الا ببعض التضحية !

قالت :

ـ أو تضحية هي ؟

قال :

ـ نعم كل قبلة غير قبلة المرأة التي يحبها الرجل هي تضحية . بل هي ـ ان شئت ـ سخرة !

فرضيت وهي تعلم أنه يغالط ويراوغ في الجواب ، وأحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة اذا أتيح له تقبيلها .. وهي تعلم أنه لا

يقول صدقا ولا يعمد الى الصراحة ! .. وقالت وهي تضحك : لقد نجوت ! ان قبلة تتمناها لهي خيانة في الضمير ، ولا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع الا التنفيذ .

واذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ما كانت تمد يدها الى مفكرته في جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة ، أو تناسب الرياضة التي خرجا لها ان كانت لها مناسبة ملحوظة .

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة : « هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة ؟ أما أنا فسأكون لك امرأتك فقط » .

وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة : « أرجو ألا ترى المرأة المحتالة الا في السينما . أما في الحياة فحسبك المخلصة .. فلانة » .

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهي تذكر كل كلمة قالها في التعليق عليها أو في انتقادها . فاتفق يوما أنهما حضرا الصور المتحركة في احدى الضواحي الصيفية ، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها في المسارح الكبيرة ، وشهدا هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشله في الصيد بالمبالغة في الوصف والحكاية . فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة في اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب ، ويظل يتساقط من هنا وهناك الى ما بعد اطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة .

فقال لها :

ــ أليس الاحسن والابرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الاطباق ؟

فضحكت طويلا وقالت :

ــ أتذكر ؟ أنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الروايه في البلد للمرة الاولى !

ولا يندر أن يسمع منها أثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات مبتدرة تكشف بها ــ على غير قصد منها ــ عن أعمق أعماق المرأة ، وتهزأ فيها بالرياء الانثوي الذي يبدو في خجل المرأة وامتناعها .

من ذلك أنهما شهدا رواية من روايات الثورات يبدو فيها طريد جريح مهدد الحياة بجراحه ومهدد الحياة بمطاردة أعدائه ، وقد لاذ بأحد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتموا أمره وتعهدته بالعلاج فتاة فيما دون العشرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام . فمالت اليه شفقة ثم مالت اليه حبا ، ثم تمالك نفسه بعد طول العلاج ، حتى انفردا في بعض الجلسات فبلغ من سرورها به وسروره بها أن نظر اليها ونظرت اليه ، وعيونهما تومض بالمحبة ، ثم اعتنقا في قبلة طويلة جارفة...

وكان بين المتفرجين على مقربة منهما سيدة نصف في نحو الاربعين ، وفتيات ناهدات في مثل سن الفتاة . فصاحت السيدة : انظرن الى الخائن ! .. أنه خدعها !

فمالت صاحبتنا وهمست ساخرة .. أتقول خدعها ؟ أنه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها !

* * *

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا أكثر من ملهى الفراغ وموعد اللقاء : كانت محور حياتهما الغرامية ، وهل كانت لهما من حياة في ذلك الحين غير الحياة الغرامية؟ وكانت ملتقى الذكريات والعواطف ووسيلة التقارب والتفاهم فيما يشعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين

والمحبات ، وكانت ذخيرة من المناظر التي يقترن كل منظر منها بكلمة ، أو بخاطرة ، أو بمناقشة ، أو بأمنية يملكان تحقيقها أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال •

فلما وقعت الجفوة بينهما وانقطع طريقهما الى تلك الدار كانت كل خطوة في تلك الطريق كأنما تثقل النفس بآكام فوق آكام من الذكريات والآلام ، وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفي فيها رصدا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة ، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الامور وأهون المحذورات •

ثم مضت الاشهر وخيل الى صاحبنا أنه لم يعد يخشى أو يذكر ، فاجترأ على العبور بالطريق مرة بعد مرة ، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعا على الاكثر ، وكانت الرابعة هي التي فوجىء بها هذه المفاجأة التي لم تكن في الحسبان •

انه لم ير صاحبته بعد اللقاء الاخير في أثناء تلك الاشهر الموحشة • لانه اجتنب الاماكن التي عساه أن يراها فيها ، ولزم بيته في معظم الايام وقد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصد اليه الا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات ، ان لم يعاوده ببعض ما يسوءه أن يراه •

فلما عبر الشارع المهجور تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد الى مكان معلوم ــ سمع من جانبه صوتا يناديه : صوتا يعرفه بين ألف صوت ، بل بين جميع ما خلق الله من الاصوات والاصداء : صوتها هي بعينها يهتف به :

ــ أهو أنت ؟

أهو أنت ؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفغار الهاوية

تحت السفينة في البحر اللجي من أثر عاصفة أو زلزال وقبل أن يجيب ذلك السؤال الذي لا يحتاج الى جواب ، وفي أقل من رجع الصدى بل في أقل من اللمحة الخاطفة التي انقضت بين ارتفاع رأسه اليها والتقاء نظره بنظرها — هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التي لا يوجد لها اسم في اللغات الانسانية ، لان اللغات الانسانية لا تستطيع أن تضع اسما لالوف من النقائض والمفاجآت التي يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز ، وتريد فيها النفس أن تقف ، وتريد فيها القدم أن تسير ، بل تريد فيها النفس أن تقف ، لانها لا تقوى على أن تريد .

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارىء — لعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد في نفسه شيئا من ذلك العزم الذي أعانه على القطيعة ، وأمده بدواعي الاصرار عليها ، كلما جنح الى اللين والاغضاء والمغالطة .

ولكنه أخذ على حين غرة .

فوقف هنيهة لا يدري ما يقول .

ووقفت هي أيضا لا تدري ما تقول ، وكأنما ندمت على الكلمة لانها لم تسمع لها جوابا سريعا ، ولم تزل تخشى ما يجيء به ذلك الجواب . فأومأت الى مركبة قريبة واقفة بين مركبات كثيرة ، واذا بهما يسيران معا الى تلك المركبة ، فتجلس فيها ويجلس هو الى جانبها وهي تقول :

— هذا خير من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين !

والواقع أن الناس التفتوا فعلا وجعل بعضهم ينظر الى بعض ويتهامسون .

فقال لها : صدقت ... هو خير !

ثم صاح الحوذي : الى أين يا بك ؟

فلما لم يسمع ردا من « البك » عاد يسأل :

ـ الى أين يا سيدتي ؟

فهمست صاحبتنا : ألا تقول للحوذي الى أين ؟

فأجابها وهو يوجه خطابه الى الحوذي :

ـ الى حيث تشاء !

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب ، وعلى اللقاء ، وعلى السؤال . لانها كانت تنتظر من صاحبها لهفة على مكان من أماكن الرياضة المعهودة التي ألفا أن يترددا عليها .. فجلست صامتة .

وجلس كذلك صامتا .

وطال الصمت .. لا لانه كان يريده ، أو لانه كان يأبى الكلام ، ولكن لانه كان يفتش عن كل كلام في الدنيا فاذا هو يهرب ... او يستعصى ولا ينقاد .

كان الكلام الذي يريده هو التواعد الى غد حيث يلتقيان في المنزل ، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام .

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذي كان لا يريده !

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء ، ومانع الخوف من تجديد ما فات ، ومانع الشك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسى أن تلقى به كلامه في دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف .

وطال الصمت ، وقالت وكأنما تناجي نفسها : يحسن بنا أن نقف هنا للنزول .

واعترف هو في طوية ضميره أنه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا .

واعترفت هي في طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجز تهديدها ولا تريد أن تبرزه في صورة التهديد . لانها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدي ... أو هو تركها تنزل وحدها ، وان كان يود استبقاءها في الحقيقة .

ولعلها أخطأت في حسابها هذه المرة ، فان صاحبها بعد أن جلس الى جانبها ، وبعد أن أحس حرارة جسمها ، وبعد أن لمس بضاضة معاطفها ، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهي تميل اليه تنتظر كلامه ، وبعد أن غاص في تلك الغيبوبة التي استنام اليها كما يستنيم الساهر البعيد العهد بالنوم الى أول ضجعة على الفراش ، وبعد أن أصبح هو وعزيمته شيئين منعزلين بينهما من البعد ما لا ينجع فيه دعاء ولا استحضار ... بعد هذا كله لعلها كانت لا تخاطر كثيرا اذا هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم .

ولكنها لم تهدد ولم تنزل .. بل صاحت غاضبة :

ما بالك لا تنطق ؟ أمعقود اللسان وأنت لك لسان كالثعبان ؟

وربما أحب أن ينفي عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام في مفاجأة اللقاء .

فقال لها وهو يتعلثم : اين كنت ؟

قالت : في السينما !

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول :

— مع من ؟

فأجفلت متقطبة وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب :

ـ أولا اذهب الى السينما الا مـع أحـد ؟ ألا تزال في ضلالك القديم ؟

قال : وماذا بدا لي من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم ؟ ولماذا صرفت كلامي الى ما فهمت ؟ ألا يجوز أن تذهبي الى السينما مع سيدة ؟ فلماذا تستغربين السؤال ؟

قالت : لانك غريب في هـذه الليلة . ماذا أقول ؟ لانك غريب في كل حين !

ثم اقتضبت على غـير انتظار وهي تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع : هذا شرح يطول ، ونحن نهيم في الشوارع على غير مقصد ، فأولى بنا أن نرجىء الحديث الى وقت آخر . ألا ألقاك غدا في المنزل ؟... غدا في الساعة الخامسة أسمعت ؟

قالت ذلك وهي تستوقف الجوذي وتهم بالنزول عند محطة الترام .

وانها لتنزل من المركبة اذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهي تنظر اليه أو تنظر الى غير وجهة .

فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها ، ولكنه شعر به وشعر بنفسه في تلك اللحظة غريقا بعيدا كمـا يشعر بالجسد الغريق الهامد يـراه في أعماق الاوقيانوس الهدار . وقال وهو أيضا نادم :

ـ غدا في المنزل !

قالت في الساعة الخامسة موعدنا القديم .

وافترقا على موعد اللقاء .

موعـــد

فارقته على موعد اللقاء في الساعة الخامسة « موعدنا القديم ! »

وكأنما كانت كلمة الموعد « القديم » وحدها طلسما ساحرا نقله من حالة الى حالة ، وأخرجه من الحذر والتردد الى الراحة والاستبشار ... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم يبر أمامه الا « الموعد القديم » بل « المواعيد القديمة » في كل يوم ، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء ، وذكريات لا تزال مرتسمة في الذهن ، سارية في الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الاعضاء .

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف احدا ، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة أو أقل من ساعة .

وأول ما خطر له أن يدخل في ذلك المساء دار « الصور المتحركة » التي كانا يلتقيان فيها معظم الاوقات ، كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه ، أو فاكهة ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان .

ومن عجائب العاطفة الانسانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر ، فلا تستولي على النفس حتى ترسم لها « طقوسا » وعادات تذكر الانسان بطقوس العقائد والعبادات .

فلما خطر له أن يقصد الى دار « الصور المتحركة » أو الى ذلك « الحرم » الذي كان ممنوعا حتى ذلك المساء ، لم يكتف بتذكرة واحدة، بل طلب له تذكرتين اثنتين ، وهو لا ينوي أن يصطحب أحدا ، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم .

وقضى الوقت الباقي الى الساعة التاسعة في قلق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور .

ثم بدأ عرض الصور وهو يزعم لنفسه أنه يشهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات ، وليس في خلده من ذلك شيء الا كما يرى الناعس المهوم ما حوله من الاشباح ، أو يسمع ما حوله من الاصداء .. كل ما يثبت في خلده منها أنها أشباح وأنها أصداء !

ثم جاءت فترة الاستراحة فاذا بالفتى الذي يبيع هناك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه في دهشة واستفهام يسأله :

ــ أكنت مسافرا يا بك ؟

وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال :

ــ أن السيدة كانت هنا في حفلة الغروب ؟

واذا بصاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال ، ولو فكر في سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه :

ــ أكانت وحدها ؟

وخيل اليه أنه يلاحظ في نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه ، ولا يريد أن يجهله في الوقت نفسه . فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة الى ما سيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض ، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشيء .

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأسه وقال :

ــ لا أدري .. كانت الى جانبها سيدة ... ولعلها كانت معها .

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الاول وهو يغالط نفسه ، ويحسب أنه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكما غير جاد في مطاولة الحديث :

ــ جانبها ؟ أي جانب ؟ أن للانسان جانبين لا جانبا واحدا كما تعلم .

وهنا ظهر من البائع الخبيث أنه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع . فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الاسئلة وأمثال هذه الشكوك . فلم يفته أن « البك » يستطلع ويرتاب ... ومن يدري ؟ فلعله كان يرى بعينه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب !

فتمهل قليلا وقال : « كان الى جانبها الآخر هذا الممر .. » وأشار بيده الى أحد الممرات التي بين الصفوف .

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا ، وأحب أن يعتقد أن كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك ، لا مجرد الشك الذي خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة في ذلك اليوم .

الا أنها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت في طرفة عين ، واذا بصاحبنا يناجي نفسه ذلك النجاء الذي كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة . يا عجبا ! اني لاجتنب هذه الدار كأنها تجمع شياطين الارض كلها في حيز واحد ، وهي تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبا لاجتنابها .. لو كان قلبها خاليا من هوى آخر لما استطاعت

ذلك ولفعلت كما كنت أفعل أنا الى هذا المساء .. والاغلب الارجح أن هذا البائع يعلم من خفية الامر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح . ألا ترى الى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه ؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء .

وعاد صاحبنا يتساءل في ضميره : ما عنده ؟ أهكذا جزمت سريعا بأن « عنده » سرا وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر مما قال ! الا يجوز أنه لم يعرف سرا على الاطلاق ، وأن ما حسبته غمزات ونغمات مريبة في صوته انما هي عادة هذه الطبقة عندما تتحدث لرجل عن امرأة ، أو عندما تتحدث في كل شأن بين رجال ونساء .

ـ يجوز !

ـ لا يجوز !

وهكذا انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة ، ولا يقاس اليها كل ما شهدته تلك الدار من الاوهام والاشباح ومن المبكيات والمضحكات .

ولم ينقذه مما استغرق فيه الا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الاصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث .

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة وكان يقدر أنه لن ينام .

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل في اليقظة الا الذي عمله وهو نائم . حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضا ، ولا تميل الى جانب الرضا لحظة حتى تعود الى جانب الوسواس والمنغصات .

ثم استيقظ في الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور .

ـ أتنوي أن تنتظرها في الموعد ؟

فما هو الا أن وضح السؤال في خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه ، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار •

وهنا دارت في سريرة هذا الرجل ـ هذا الرجل الواحد ـ مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين ، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله الى رأيه ، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه في هذا الحوار من أساليب الاقناع والاغراء والرياء والتصريح :

ـ كيف لا تنتظرها ؟ أتعطي سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه ؟ أهذا يليق برجل ؟

ـ ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتي تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف •• ان هذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها في العلاقات التي انطلقت من جميع القيود •

ـ ولكن مم عساك أن تخاف ؟ انتظرها وقل لها انك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد !

ـ عجبا •• أتجهل ما أخافه ؟ أتجهل تلك الآلام التي لا حيلة فيها لمخلوق ولا تزال تبتدىء من حيث تنتهي ، وتنتهي من حيث تبتدىء ، لانها تبتدىء وتنتهي من الشكوك ، وليس للشكوك قرار حاسم ، ولا مقطع بيقين ؟

أتجهل تلك الاشباح اللئيمة التي تطل عليك في أطيب أوقاتك فتنغص

عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء ؟

ــ لكن علام كل هذه الشكوك التي ليس لها من أول ولا آخر .. اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض ــ وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها في ساعات فراغك ، ولا يعنيك من شأنها بعد ذلك اخلاص ولا خداع .

ــ أأنت مخلص فيما تقول ؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التي كانت كل نساء الارض عندي ، وكل ما يخفق له قلبي ، فتصبح بين مساء وصباح وهي لهو ساعة ومتعة فراغ ؟ أهذا خداع يجوز على انسان ؟ أو تضمن اذا أنا اتخذتها لهوا ومتاعا ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع ، واننا لا ننكفىء بعد أيام أو بعد أسابيع الى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الاليم ؟ لا لا هذا محال باطل ، واستدراج لا يستر ما وراءه وتزوير لا أرضاه .

ــ لكن الفتاة مليحة مع ذلك .. تصور بضاضتها وهي جالسة الى جانبك في المركبة ، وأنفاسها وهي تهب على خدك فتسري في جميع أوصالك ، وقبلتها وهي ترتعش على شفتيك ، وحلاوتها وقد زادها النحول في هذه الاشهر حلاوة على حلاوة ، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه لك من المودة والحنين ، وتصور ذلك كله بين يديك في مدى بضع ساعات وأنت مع هذا تفكر ... تفكر فيماذا ؟ في نبذ هذه النعمة التي تسعى اليك ، وفي الخوف والجبن والفرار !

ــ هذا حق كله . ان الفتاة لمليحة ولا نكران ... ولكن !

ــ ولكن ماذا يا أخي .. ! انتظرها والته بها ولا تدعها لغيرك ينال منها ما لا تنال ... ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت

رجل ذو عزيمة ومضاء .. فاذا عاودتك الشكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينك وبينها كما قطعتها من قبل ، والا فأنت رابح ما استرجعت من متعة وسرور .

ــ عزيمتي ؟ وأين هي عزيمتي ان كانت لا تنجدني في هذا النزاع العنيف ؟

ــ انها تنجدك في كل حين ولكنك أنت لا تريدها الآن ... لا تريد عزيمة الجفاء والقطيعة ، ومتى أردتها غدا فهي حاضرة لديك ، وهي في كل ساعة طوع يديك .. ومع هذا ألا يشوقك أن تستمع الى حديثها عن أيام القطيعة بينكما ؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض ، وتريك من البواطن ما ينقض الظواهر وتصف لك من حالها في غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء ؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة في هذا الحوار الحثيث ولا قرار .

وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار .

وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار .

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين . غير أن الذي حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيها على أن الانسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره ، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف ، وانما كان معهما ثالث لا يدريان به وهما ماضيان في الاقناع والانكار .

ففي الساعة الرابعة وبضع دقائق ــ والحوار على أشده بغير قرار ــ

وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج الى حيث لا يعلم الا أنه خارج من المنزل وكفى • ومضى في طريقه مهرولا كمن يمضي الى غايـة معلومة يخشى أن يفوته لحاقها ، وركب سيارة لم يعرف الى اين تحمله الا بعـد أن استقر فيها ، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود •

ثم ساوره القلق وذلف الى منزله بالسرعة التي فارقه بها، واستحالت كل حيرته قبل الخروج الى حيرة أخرى ، أو شوق آخر : وهو أن يعرف ما حدث في غيابه بجميع تفصيلاته • هل حضرت في الساعة الخامسة ؟ أو حضرت قبلها أو بعدها ؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه ؟ وما بدا على وجهها وهي تصدم بهذه « المقابلة » ؟ واذا كانت لم تحضر فما الذي عاقها عن موعدها ؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها ؟ هل ضربته وهي تنوي أن تخلفه من اللحظة الاولى ، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها ؟

وأنه ليفتح الباب بالمفتاح الذي في جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادته في الاوقات الاخرى ، اذا بالخادم يصادفه وراء الباب ، وهو يظن — بل يرجو — أن يخبره على الفور أن سيدة حضرت في غيبته ولا تزال في انتظاره ، ويغلو بـه هذا الوهم حتى يعجل بالالتفات الـى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التي تنتظره فيها •

ولم تمض في ذلك الا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الاخبار يستحق أن يقال ، ويساوي تلك اللهفة التي تعتلج في صدر صاحبنا •

فأسرع صاحبنا سائلا :

ـ ألم تحضر الى هنا السيدة ؟ ألم تقل شيئا ؟

فقال الخادم في فتور غريب : لا أعلم !

فانفجر صاحبنا غاضبا : كيف لا تعلم ؟ ألم تكن هنا ؟ هل هي أوصتك بأن تقول ذلك ؟

قال الخادم وفي صوته احتجاج من يستغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهام : يا سيدي قلت لك لا أعلم ، لانك نزلت من هنا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد في سائر الايام .

فاشتعل صاحبنا غيظا ، وهم أن ينقض عليه لولا أن هرب الرجل من أمامه فتبعه الى باب الخدم ، وهو يعلنه بالطرد وألا يعود ليريه وجهه مرة أخرى . ولم يصفح عنه الا بعد ثلاثة أيام ، وبعد أن شفع له أن الرجل معذور لانه لم يأمره بالبقاء في المنزل ، وقد أنساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار .

الشكوك

من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان الى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم ، ان لم يكن حبا أو حنينا أو رغبــة في المتعة والسرور ، فعلــى الاقل مــن قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما في الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل : هل أحبت غيره ؟ وهل أحب غيرها ؟ وهل سلت ؟ وهل سلا ؟ وبماذا يشعران في الحب الجديد ؟ أو ماذا بقي عندهما من الحب القديم ؟ وماذا تقول له حين تخلو به ؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها ؟ وأشباه ذلك من الاسئلة التي يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه في أشد الحاجة الى الوقوف على جوابها . فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب ، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس كانوا أو غير محبين .

فاذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما في اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء ، فلا بد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والاكدار يغطي على جميع المشوقات والمرغبات ، ويعكس

الفضول والاستطلاع فيستحيل الى صمم ونفور ، ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة الى ذلك الشبح المرهوب .

وهكذا كانت الشكوك التي تمثلت لصاحبنا فانساق بغير وعي ولا ارادة الى اجتناب الموعد ، والفرار من المنزل ، والهزء بكل اغراء وتشويق ينبعث في أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم .

كانت شكوكا مريرة لا تغسل مرارتها كل أنهار الارض وكل حلاوات الحياة : كانت كأنها جدران سجن مظلـم ينطبق رويدا رويدا ولا يزال ينطبق وينطبق وينطبق حتى لا منفس ولا مهرب ولا قرار ، وكثيرا مـا ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة في مداعبة الفريسة قبـل التهامها ، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسع اتساع الفضاء بين الارض والسماء ، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف : بطل المكان فـلا مكان ولا أمل في المكان ، ووجب البقاء حيث أنت في ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء في الانتقال .

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفا بمقدار واحد وقوة واحدة ، فلا الى اليمين ولا الى اليسار ، ولا الى البراءة ولا الى الاتهام .. بـل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فـلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك ، ولا تبطل التهمة في هذا الجانب حتى تبطل التبرئة من ذلك الجانب . وهكذا الى غير نهاية والى غير راحة ولا استقرار .

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية ، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى . فهي من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحد أو حركة

واحدة لا يختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران ، وهـو في تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الكثيرة ، فلا يجوز عنده احتمال راجح الا جـاز عنده في اللحظة نفسها احتمال راجح في قوتـه ووزنه وجوازه ، ولا يدفع هذا أو ذاك الا بدافع حاسم لا تردد فيه .

ألم لا نظير له في آلام النفوس والعقول ، وحيرة لا تضارعها حيرة في الاحساس والتخمين ، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الاب المستريب الذي يشك أفجع الشك في وليد منسوب اليه : هل هو ابنه أو هو ابن غيره ؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذي يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء ؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء ، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار ؟ هل هو مخدوع في عطفه عليه ، أو هو مخدوع في نفوره منه ؟ وكيف يفصل في هذين الخداعين ؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما ، وكلاهما لا يطاق .

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التي هـو مستغرق فيها ، ويحاول في اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود اليها . ثم لا يدري في أي المحاولتين هو مصيب . ولا بـد أن يدري ، وهيهات لا سبيل الى الدراية بحال !

واذا كان بعض الشكوك في العشق من وساوس الاوهام ، فمما لا نزاع فيه أن العاشق أصدق الناس في شكوكه حينما يبنيها على أسباب صحيحة وحقائق ملموسة ، لانه يعرف صاحبته معرفة لا يخفي معها عارض من عوارض التغير ، ولا لمحة من لمحات العين ، ولا همسة من همسات الضمير : يعرف نظراتها ويعرف كلماتها ، ويعرف ما تقوله عن سجية وما تقوله بتكلف واصطناع ، ويعرف أن بعض الخشونة أدل علـى الحب

والاخلاص من بعض المجاملة ، ويعرف نفسها وكيف تستتر فيها الخفايا ، ويعرف جسدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات .

وقد يسأله من يسأله كيف خامرتك الشكوك فيضحك من نفسه أن يجيبه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الاسباب ، وقد يؤثر في معظم الاحيان أن يكتمها ويموهها على أن يفضي بها الى انسان كائنا ما كان .

وبعد فهل الغدر في الحب مستحيل ؟

كلا ! ليس هو بمستحيل ولا مما يقارب المستحيل . وليس صاحبنا بالذي يصدق ولا صاحبتنا بالتي تصدقه وتدعيه .

لقد اعترفت له بعلاقتين سابقتين : احداهما متينة مستحكمة طويلة والاخرى هوجاء حامية سريعة ، واحداهما مع كهل يقارب الاربعين والاخرى مع فتى في نحو الخامسة والعشرين . واحداهما صيدت فيها ولكن على غير كره منها ، والاخرى كانت هي فيها الصائدة وهي التي نصبت الشباك ، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس الحانقون فأطاروه !

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الاول ، وبما كانت تعمي به على من حولها حتى لا يرتابوا في أمرها ، واذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان .

واعترفت له بالردود المفحمة التي كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت .

واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها ، فقالت له انها لم تكن على يقين من حب عاشقها الاول ، ولم تكن تبالي أن يحبها اكتفاء بعلمها أنها هي تحبه . وذهبت في امتهان كرامتها ـــ وهي مغرورة

بفتنتها وامتيازها — الى حد من الخضوع لا يحمد الا في التدين والايمان . فقالت انها لمحت منه مرة أنه يطيل النظر في مجلسها الى امرأة أخرى من صديقاتها ... فخطر لها أن تناجي نفسها سائلة : هل يجسر على أن يطلب منها الوساطة بينه وبين تلك المرأة في التقريب والتمهيد ؟!.. قالت : « فراعني هذا السؤال ، ولكني ، عدت فشعرت أني سأفرح بأن أسره وان جاء سروره من هذا الطريق المهين ! » .

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه ، وتمادت بها الوحدة وهي في دهشة مخيفة ، فجعلت تلتفت الى شاب وسيم من الجيران ، ثم تمعن في الالتفات اليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد الى منزله في الهزيع الاخير من الليل شغلا لها شاغلا في اليقظة والمنام ، وأخذت تحاسبه في طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون .. ! ويزيدها ذلك لجاجة في الولع ولجاجة في الانتظار ، ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى الى الالتفات منه ثم الى التحية ثم الى لقاء جنوني في المنزل الذي يحيطها فيه الآل والاقربون ، وكانت هذه المغامرة العجيبة هي العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب !

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بها أول مرة ، ويذكر ما تحدثت به اليه في أول خلوة . لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت في الانصراف لانها ذاهبة الى موعد مع صديق ، وأرته خطابا من ذلك الصديق يقول لها فيه انه يشتري في ذلك اليوم سيارة ويحب أن يستأنس برأيها وبذوقها في اختيار اللون والطراز . فأذن لها صاحبنا وهو يقول مازحا : « هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة ... فلا تهمليه ... » .

قالت له في أول لقاء بعدها : « لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقيني

وتؤخرني عن ذلك الموعد . ولو قلت لي : لا تذهبي ! لما ذهبت .. ولو مزقت الخطاب أو خطفته من يدي لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء ! » .

وكانت تحب الضحك وتفطن الى الفكاهة وتضحك أحيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع ، ولكن صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت أمامه وهي تمثل الصديق صاحب السيارة وتروي مـا جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مـرة على اقتراح خطير ، بعـد تمهيد وتحضير ، وحذر وتحذير .

وما هو الاقتراح الخطير ؟

قبلة ... !

نعم قبلة ، وأكدت الكلمة وهي تروي الحكاية مرتين .

قالت : « انه كان ينتظرني في طريق الزمالك ، فلمحت أول ما وقع نظري عليه انه مهموم قلق يخفي على أطراف شفتيه نية من النيات ، وكان ذلك بعد أن التقينا عدة مرات وانفردنا في الخلوات ساعات . فلم يعسر علي أن استشف تلك النية ، وراقني أن استدرجه الى الافصاح عنهـا لارى كيف يتدرج في الكلام ، فأضجرني كثيرا قبل أن يستجمع في قلبه القدرة على أن يقول :

ــ يافلانة !

قلت : نعم يا فلان .

قال : أن لي أمنية أحب أن أفاتحك فيها وأرجو ألا ترفضيها ولا تسيئي تأويلها .

قلت : انني أحب أن أرى أمانيك كلها تتحقق ، ولا سيما الاماني

التي فيها لك الخير والنجاح .

قال : أشكرك ... لكن هذه الامنية في يديك أنت ؟

قلت كالمستغربة : في يدي أنا ؟ ما علمت قبل الآن انني رئيسة عليك ، ولا انني قادرة على نفعك وتوفير ما تتمناه !

فأحجم قليلا ، وخشيت أن يعدل عن مجرى حديثه فعدت أقول :

ــ ومع هذا أسمع منك هذه الامنية فلعلي أشير عليك بما يفيد .

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله أن أسمح له بقبلة ! !

فسكت هنيهة لا أدري هل أضحك أو أتغاضب . وظن انني أتجهم وأقطب وانني أهم أن ألومه وأخاطبه بما يسوءه ، فأسرع الى الاعتذار ، وأسرعت أنا الى الكلام لئلا أضحك ، قائلة :

ــ أو هذا مما يحسن بك يا فلان ؟ لكأني بــك غدا تتمادى الى أكثر من ذاك ..

فصاح كمن مسته نار : أنا ؟ أتظنين يا فلانة انني من هؤلاء ؟ معاذ الله يا فلانة . معاذ الله .

* * *

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهي تحكي له هذه الحكاية ، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال . فما الذي يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضي مع أيسر الاهواء ؟

لا بل هي قد اعترفت له بما هو أدعى الى الشك والريبة من جميع مــا تقدم .. فقد غضب منها وغضبت منه قبل الغضبة الاخيرة مرات

عديدات ، بعضها يعقبــه الصلح في يومها وبعضها يتجاوز الايام وقــد يتجاوز الاسابيع ، ففي احدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ في العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام . وسافر الــى مصيفه وسافرت الى مصيفها ، ولا مطمع لهما في لقاء ، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف ، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها الى جانب بعض المشاهد الخارجية التي يرحل اليها المصطافون والسائحون ، ومضت أيام معدودات واذا بجرس التلفون يــدق واذا بالمتكلم ذلــك الصوت الذي لا يلتبس عليه بين ألوف الاصوات :

ــ الحمد لله على السلامة !

ــ سلمك الله وعافاك !

ــ هل لي أن ألقاك اليوم ؟

ــ نعم ، تفضلي !

ــ أتفضل ؟ لا . لست أتفضل ، ولكني أزورك لالتمس الغفران .. هل في وسعك أن تمثل دور الكاهن في الديانة المسيحية ؟

قال : أخشى أن يكون دورك اذن هو دور الخاطئة ؟

قالت : هوذاك . فالى اللقاء ... فالتلفون لا يتسع لمثل هذا الحديث

لم يشعر ذلك اليوم هو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا احتقار . ولكنه شعر بخسارة وأسف ، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ اليه، واستقبلها عاطفا عليها متطلعا الى ما وراء حديثها مستعــدا للتسامح في الاصغاء اليها . فدخلت وهي تقول في غير احتجاز ولا امتناع :

ــ لا قبلات ولا تحيات حتى تعرف قصتي وأعرف رأيك.

« اسمع يا فلان . انني لا أؤمن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لي في معاشرة الصديقات المزعومات على الاطلاق ، فان لم يكن الى جانبي رجل أهابه واحبه واعتمد على سنده فأنا في وحشة الهالكين ، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفة لا طاقة لي على دفع الغواية . وقد افترقنا يائسين ليس لك حق عندي وليس لي حق عندك ، وأنا لا احاسبك على شطحاتك في مصيفك ان كانت لك شطحات ، ولكني اسمح لك أن تحاسبني على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأنني زللت في المصيف وانغمست في صلة غرامية ليس فيها غرام في الحقيقة ، ولم أحضر اليك اليوم بل لم ارسل اليك الصور الا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسي لاستئناف مودتنا القديمة . هأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل ؟ هل تقبلني ؟ »

فاستزادها من خبر تلك الصلة التي لا غرام فيها كما تقول، واسترسلت هي في تفصيلات لم تستر فيها سرا ولم تصبغ فيها أمرا بغير لونه ، ولم تقف دون معرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدي الكاهن على حسب « انذارها » في حديث التليفون .

قال بعد أن أصغى اليها في صمت وابهام :

ـ انني يا فلانة لا أملك أن اجيبك هذه الليلة ، ان أنا قبلتك فلست آمن أن أندم وان أنا رفضتك فلست آمن كذلك أن أندم . ولكن دعيني بضعة ايام ريثما أروض سريرتي على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتي عليه ، غير خائف من عواقب العجلة .

وما انقضت تلك الايام حتى استقبلها صافحا ، وسألها أن تذكر أبدا أنه قد يفهم عذرها من الضعف ولن يفهم لها عذرا من الختل والخداع ، وحمد لها صراحتها ولكنه في الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجس منذ

تلك الساعة ، ولم يزل على تفاهم دخيل بينه وبين طواياه انه لا يأوى الى حصن حصين ، وانه مع ذلك هو حصنه الذي لا بد أن يأوى اليه !

فلما ساورته شبهات الشك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشوارد الخاطر وعلامات الزينة والحلى والملابس وما الى ذلك من علامات هي لمن يعهدها أثبت من البراهين واصدق من الشهود ، ورانت السآمة على كل لقاء ، وتغلغلت اللواعج والاشجان في كل فراق ، وغلبت الأكدار على كل صفاء وكل رجاء . ولم يبق الا أن يقبلها على أن يستغرق هو في حبهـا ويسمح لها هي أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل ، أو يقبلها على أن يلهو بهـا وتلهو بـه وهذا أيضا مستحيل ، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا مـا قـد عول عليه ، وظن أنه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر .

وانه لفي حسبانه هذا يوشك أن يودع القلق والاسر ويقبل على الطمأنينة والحرية ، اذا به يهاجم في الصميم ، واذا بالظواهر والبواطن كلها تضمن له وهي تتدفق عليه أنه عائد لا محالة الى مـا ودع من شقاء وألم ، وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود الى ما ودع من ثقة ونعيم . فماذا عساه أن يصنع ؟ لا تسل فكره ولا تسل قلبه ولا تسل ضميره ، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمه وأعصابه التي عزمت عزمها بغـير اكتراث لفكره أو لقلبـه أو لضميره ، واستقلت بارادتها وهي لا تترجم عن تلك الارادة الا بالعمل الواقع دون التفكير ودون التعليل ودون التفسير ، فطلبت النجـاة بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذي هي قوامه الى خارج المنزل وهي لا تعي ولا تفقه الى أين تسير ، ولا لوم على من يطلب النجاة ، فانما هكذا تطلب النجاة !!

عِلاج الشك

مواجهة الحقيقة من أصعب المصاعب في هذه الدنيا .

«أولا» لاننا في الغالب لا نعرف ما هي الحقيقة .

و «ثانيا» لاننا في الغالب لا نحب أن نعرفها الا مضطرين ، حين نيأس من قدرتنا على جهلها ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الامر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها .

و «ثالثا» لاننا اذا عرفناها ففي الغالب ــ أيضا ــ انها تكلفنا تغيير عادة من العادات ، وليس أصعب على النفس من تغيير مـا اعتادت ... فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير مـا تعودناه ، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة .

وقد كانت الحقيقة انهما ــ أي صاحبنا وصاحبتنا ــ قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن ، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغيير .

تغيرا فلا سرور لهما في اللقاء ، وقد كان اللقاء عندهما أكبر سرور يشعر به الانسان .

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان .

* * *

تغيرا واشتد بهما التغيير وهما لا يجسران على مواجهة الحقيقة ... فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقا أو يريد الفراق لما استطاع الجواب ، أو لقال في نفس واحد أنه يريد اللقاء ويريد الفراق .

ولو سألت هي نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لا تعلم لماذا تحضر في الموعد كل يوم ، ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور .

هو لم يجزم بخياتنها كل الجزم فلماذا يتركها ؟ ... ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها ؟

وهي لم تيأس من صلاح شأنه معها ، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه ويعز عليها ان تتهم نفسها بهذا العجز وهي تفخر بذكائها ، فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدارها ؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوي لديها الفشل والنجاح ؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الاولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين ، وخير ما وصلا اليه في تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين ... وهما وحدهما المتفرجان والممثلان !

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا اليه كما يذهب الممثل الى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة ، ولا بد له من الذهاب ، ولا سرور له في القعود والاحجام والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد .

لقد كانا يحضران الى الموعد بحكم العادة التي لم يجسرا بعد على تغييرها ، لانهما كانا يخافان من التفكير في التغيير ، ويخافان من التفكير

في ذلك الخواء الموحش الذي يستولي عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير فهما يحضران لانهما خائفان مـن الغياب ، لا لانهمـا راغبان في الحضور .

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أحب اللقاء بعد طول الانتظار ، وان أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد ، أو بعض يوم في معظم الاوقات .

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات ، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبـل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها الى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يقبل على الدار ، وكثيرا مـا كانت الغيوم تكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردا قارسا في صبارة الشتاء ، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وجل منقبض الصدر غائم الخاطر أن ييأس من وصول صاحبتنا في موعدها ، ولها العذر كـل العذر اذا هي تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم ، ولا يزال في مرقبه نهباً لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد استحال الى أجزاء تعد بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة ! ! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال الدافق اعنف ارتجاج . وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فاذا هي الساعة الخامسة الا عشر دقائق ! وبعد مليون آخر ثم مليون ثـم مليون تقترب ثم تقترب فاذا هـي الساعة الخامسة بالدقيقة والثانية ... والويل له اذا تجاوزت هذا الحد ولو الى دقائق

معدودات ، لان الدقائق المعدودات لا بـد أن تترجم في لغـة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التي لا يجمعها الحصر والاحصاء ، وانـه ليطيل النظر الى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه ، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق الا كما يرجع الى النائم صحوه أو كما يرجع الى المذهول رشاده ، وتتقدم وهي تتهادى في خطواتها التي كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق ، وينفتح الباب وينقسم العالم الى قسمين اثنين لا ثالث لهما في الذهن ولا في الخيال : قسم فيه كل شيء وقسم ليس فيـه من شيء ... أو قسم موجود وقسم ليس له وجود ، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج ، والدنيا هي القسم المهجور الذي لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لاوسع من مكانها في خرائط الاطفال .

والذي يحدث في الشتاء قد كان يحدث مثله في الصيف أيام السموم والحرور . فلا تأخير ولا اعتذار ، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار ، حتى يحين الموعد ويستقر القرار .

في تلك الايام كانت كل هنيهة لها شعورها المحبوب المتجدد البهيج : اذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذي يفتح باب حصنه ليتلقى نجدة الامان والاطمئنان الى زمن طويل وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب الى مهرب سحيق ، واذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشارب الذي استوفى نصيبه من العقار وبقي له نصيبه من النشوة والتذكار ، ونصيبه من الشوق في الغد الى مثل هذا اللقاء ومثل هذا الوداع ومثل هذا الانتظار ، وبين لقاء كل يوم ووداعه ألف لقاء ووداع وألف انتقال من حال الى حال ، وألف سكينة وألف ابتدار .

تلك أيام !

ثم جاءت بعدها أيام .

وشتان أيام وأيام .

نعم شتان حقيقة وتمثيل ... وأي تمثيل ؟ ! تمثيل اللاعب الذي يساق الى دوره سوقا لانه يخشى الفشل لا لانه يأمل النجاح .

واستمرت المواعيد ، واستمر اللقاء ، واستمرت السآمة ، واستمر الشقاق ، واستمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مستميتة أن يعود ما لا سبيل الى أن يعود .

وكانت هي تقلد نفسها في أيام الصفاء فتمد يدها الى جيبه بعد عاصفة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعة كما كانت تمدها الى جيبه بعد ساعات الرضى والدلال لتخرج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسطرا أو كلمات تسجل بها ما كان في ذلك اليوم ، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يسمع فيها الا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال والمحال : « نزهة رسمية في عربة . ثم مناقشة جدية . ثم مصافحة وتقبيل ، ولا عجب في ذلك ... فان الحب يسهر ! » .

نعم يسهر من الأرق لا من العناية !

وسهر الحب الى اليوم التالي فالتقيا وتراضيا وتناولت هي المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات : « سامحت من غير سبب . أحبك » .

ولكنها كانت آخر ما كتبت في مفكرة ذلك العام ، وفيما بعده من أعوام .

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها الا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشل ، وصاحبنا خليق أن يكون واحدا من هؤلا

الناس لـو اقتصر الامر على الفتور والتكلف والمناقشة والملال ، ولكن الشيء الذي لا يطاق هو أن تشك ثم لا تستطيع أن تصل الى الحقيقة ، ولا أن تكف عن الشك ولا أن تستقر عليه ، فانها حالة لا يطاق لها دوام ولا بد لها من انتهاء .

فكيف هذا الانتهاء ؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكون صبرهما على هذا الفراق القصير ، ويعرفان من ثـم كيف يكون صبرهما على الفراق الحاسم الذي لا لقاء بعده . فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا اذن بغـير ندم ولا خصام ، وان عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق الـى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد ، وعسى أن يفهم كلاهما من مكان صاحبه عنده ما ينهاه عن مطاوعة الهواجس ومجاراة الشكوك .

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لا يحتقرانها بعد طول السآمة وطول النزاع ، فان اللهفة الصادقة التي طغت عليهما يوم عادا الى اللقاء قد عادت بهما الى حنين شبيه بالحنين القديم ، ونعما في ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل .

ولما شيعها الى الباب وهو يقول الى اللقاء في الغد قالت : لا ... ان اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشهى ... وسأخبرك أو تخبرني عن الموعد متى طلبناه ... ولا نتفق عليه الآن !

واستحسن منها هذا التسويف كما كان من قبل يستحسن منهـا نشاطها في تعجيل المواعيد ، وود في خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين . ففي ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة ،

وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع .
الا أنها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد .

فما هو الا موعد أو موعدان حتى أحس كما يحس كل رجل يفهم طباع المرأة التي يهواها أنها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسدها أيام الغياب ، وأنها أصبحت ترحب بالتسويف لانها تريده وتستريح اليه ... ورجع الى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هي التي اقترحت في بادىء الامر أن يعالج الشك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذي بدأ بالاقتراح ، فتذكر أنها كانت تحوم حول الاقتراح وتوحيه اليه وتهتم بأن توقع في ذهنه أنه هو صاحبه وموحيه ... فقال لها متهكما :

أرى أن الحل الاخير الذي اهتدينا اليه يرضي أكثر من اثنين ! !

قالت : ماذا تعني ؟

قال : أعني أنه ربما أرضى ثلاثة بدلا من اثنين ، وربما أربعة ... من يدري ؟

قالت متهكمة : وربما خمسة أو ستة ... زيادة خير ... ولماذا تكره الرضى لعباد الله ! ؟

وتلا هذه المحاورة منظر من مناظر المسابقة في الايلام والتبكيت والغضب والاغضاب . قال فيه وقالت ، وتمادى فيه وتمادت ، وباح فيه وباحت ، وخرجت من المنزل حانقة لا تودع ولا تسلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع .

* * *

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى اليها ولا تسعى اليه . ونازعته أهواؤه مرات في أثناء هذه المدة أن يراها وأن يتحدث اليها

فنفر أشد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم • وبينما هو يحسب نفسه غاضبا نافرا اذا به يتحول رويدا رويدا الى مشفق حزين ، واذا باشفاقه الحزين أقرب الى اشفاق الابوة الرحيمة منه الى اشفاق الغرام اللجوج ، واذا به في ساعة من الساعات يكتب اليها هذا الخطاب :

أيتها الصديقة :

أيا كان رأيي فيك أو رأيك في فلا ضير في ارسال هذه الكلمة اليك ، ولا خسارة علي ان ضاعت عندك أو صادفت نصيبا من الاصغاء •••••• ان مسحة من الالم ألمحها على وجهك تخيل الى أنني أخاطبك منك مستمعا، وأن موضعا حيا في ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب •

لا حاجة الى البحث في تفاصيل حياتك القديم منها أو الجديد ، فحسبي ما سمعته من لسانك ، وحسبي أنك تعترفين لي أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد • وفي هذا كفاية وفوق الكفاية !

فلو قيل لي انني سأسمع هذا الخبر من انسان لما خطر لي قط انني أسمعه منك أنت باختيارك ، ولو جاز أن تبوحي به لكل اذن لكانت أذني هي الاذن الوحيدة التي يجمل بك أن تكتمي السر عنها ، لانني أنا الرجل الوحيد الذي يرى لك كرامة غير كرامة جسدك ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة •

ومع هذا بأي بساطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بك هنا وهناك ••• لكأنما كنت تفخرين •• أو كأنما كنت تشفقين من كتمان هذا الحظ السعيد ••• فيا صديقتي لشد ما ضللك الشقاء حتى جهلت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجة الى تعليم وتلقين ، وحتى نسيت أن المرأة تستطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تستطيع أن تفخر بشيء

لم تعجز عنه امرأة بين النساء • فهل أصدق حقا انك أنت تلك المرأة التي لم يبق لها الا هذا الفخر المخجل الاليم ؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التي تجد سعادتها في هذا المجال ؟ !

أظن — وأرجو أن يكون ظني صحيحا — انك تخدعين نفسك يـا صديقتي الخادعة المخدوعة •

لست أنت التي تشعر بالسعادة في هذه العيشة الاسيفة •

غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها ولكن شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء •

انظري الى وجهك في المرآة • انظري الى ألم ضميرك الذي يبكيك كثيرا ولا ريب في ساعات الوحدة والانفراد •

ثم اسألي نفسك : ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير ؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك في عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الانوثة الذي لا سعادة لامرأة بغيره • وماذا في الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور ؟ أنت في تلك الحالة بين اثنتين : اما أن تألفي العيشة التي تؤلمك الآن وهذا هو موت النفس الذي يموت به كل سرور صحيح •

واما أن تتعذبي بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة ، وأنت انما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة والاطمئنان •

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هـذا الالم المخيف ••• فاذكري نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التي كانت تساورك حين تحضرين الي ، واذكري كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة ••• كان اهتمامي بك حتى بالغضب عليك يفرج

شيئا من الضيق الذي يسد عليك منافذ الامل ، لانه يعطيك فكرة عالية في نفسك ، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذي يسمم كل شعور وينغص كل نعيم .

اذكري كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتني في يوم من الايام بين الجد والمزاح : أصحيح : أصحيح أن وجهي يمتلىء ويحلو ؟ كان ذلك وأنت تشعرين الى جانبك بنفس انسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد في عذرك ما استطاعت ، وترعاك في الغيبة والحضور ، وهذا أحوج ما تحتاج اليه المرأة خاصة في هذه الحياة .

فكل امرأة ــ كل امرأة بلا استثناء ــ في وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام .

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التي تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضى والغضب والشكر والملام .

أنت أم فاذكري ذلك جيدا .

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك في هذه الصفات ، فلا تنسي عزتك التي تليق بك ولا تنزلي قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة ، واسألي نفسك مرة أخرى : هل وصلت امرأة الى العاقبة المخيفة ــ الى المرض والهوان ــ من غير هذه البداية ؟ وهل وصلت امرأة الى تلك العاقبة وهي تظن أنها واصلة اليها أو أنها قريبة منها ؟ كلا ! ...
كلهن يا صديقتي يحسبن أن النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للامان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن . والعاقبة واحدة على كل حال !

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللواتي تحوطهن حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات •

فأنت في حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شيء وفريسة رخيصة لكل واش أثيم ، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشفيقة وحنان الام الرؤم ومعيشة الزوجية الهائئة ، فخسرت السعادة وأفسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والاخلاص •

ولكن هل من الضروري لك أن تجني أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الالم الشريف واباء الحرمان العفيف ؟ وهـل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التـي لا تعرف السعادة ولا تعرف الالم الذي تحترمه هي ويحترمه الناس ؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شيء ••• بي من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و « ظروفك » السيئة ما يمنعني أن أنظر اليك نظرة قاسية •

وما تمنيت ولا أتمنى شيئا كما أتمنى أن أراك بعين الاعجاب والفخر والمحبة • ولكني أقول لك وأنا آسف : ان فقدك لـم يكن هينا علي في وقت من الاوقات كما هو هين علي الآن • فاذا كتبت اليك هذه الكلمة فانما هي كلمة صديق يريح ضميره وواجب أخير لا بد من أدائه ، واذا أبيت الا أن تفهمي لها معنى من معاني الانانية فافهمي اذن أنهـا كلمة انسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة الى آخر أيام الحياة •

والوداع ، والسلام •

الرقابة

لماذا كتب ذلك الخطاب ؟

انه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهـو يفكر في كتابته ، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه الى الرسول الذي تعود أن يسفر بينهما بالرسائل . ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب : أي خاطر ذلك الخاطر الذي ورد على باله وهو يحسب أنه واصل الـى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها الى الوفاء والاخلاص ان كانت تخون وتخدع ؟ أيزعم ولـو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لانها تقرأ كلاما كهذا الكلام وتروي النظر في مصير كذلك المصير ؟

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع ! فكيف بصاحبتنا التي يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزؤ والتحدي بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير ... انها تريد أن تثور وتجمح ، ولا شيء أقمن باشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الانسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية ! وان الرجل مـن رجال الدين ليستحق

عندها كل اكبار وتبجيل لانه يخالف في حياته الخاصة ما يعظ به الناس في حياته العامة ، وقد خاضا في حديث بعض « الائمة النساك » مرة فقال لها : لست على يقين أن مولانا هذا يحب السماء والآخرة . ولكنني على يقين من حبه الارض والدنيا ... ألا تعلمين ذلك ؟ ... قالت أعلم كل العلم . بل أعلم أنه يحب فلانة وفلانة وفلانة وفلانة ... غلطان أنت يـا صديقي ان حسبت أنك تغض من « مولانا » بما اتهمته . ان خفاياه تلك لهي التي تعجبني منه وتكبره في نظري وتحملني على تقبيل يديه ، وانني ما سمعت عظاته يوما الا استعظمت منه أنه قادر على مخالفتها . ثم راحت تقول مازحة ــ وكانت كلمة غلطان يا صديقي من لوازمها في الحديث ــ : غلطان أنت يا صديقي ان حسبت أن المرأة تنقم على رجل الدين أنه يدع السماء من أجلها !

قال : وما رأيك في الراهبة التي تترك السماء من أجل رجل ؟ ألها عندك مثل هذا المكان من الاعجاب ؟

قالت : ان الراهبات لا يعظن أحدا ، واللعبة تفقد كثيرا من بهجتها بهذا الدور البسيط الذي تمثله الراهبة الغاوية : وأعني بـه دور الوجه الوحيد ! !

اذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التي لا تعجب مـن الوعاظ الا بقدرتهم على الوعظ وقدرتهم بعد ذلك على نقض المواعظ .

نعم انهـا تتذوق الكلام وتعطيه « درجته » العادلة مـن التقريظ والتأثر ، ولا يبعد أن تبكي اذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع ، ولكنها لن تزيد على ذلك ، ولن تخلط بين التقدير الفني والنتائج العملية ! ولو كانت في موضع السلطان العثماني « سليم الاول » لبكت من قصيدة

الشاعر الذي تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنــه ، ثم أمرت كما أمر بسوقه الى ساحة الموت عقيب انشاده القصيدة : لان الفن شيء والسياسة شيء آخر ! !

أم ان صاحبنا ــ وليكن اسمه « هماما » وليكن اسمها منذ الآن « سارة » لتيسير الكلام عنهما •••

أم أن صاحبنا « هماما » قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها اليه صراحة فعمد الى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء ••• ؟ !

لا • ولا كل هذا •

ان «هماما» لم يكن من دأبه أن يقصر في مراجعة نياته ودسائس طبعه، ولقد يغلو في ذلك حتى يعزو الى نفسه من المقاصد ما ليس في حسبانه ، ولكنه ــ غلا أو لم يغل ــ مــا كان في وسعه أن يزعم أنه بحاجة الــى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء • فاللقاء لم يكن بالشيء العسير ، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة مــا يلجىء الى الحيلة والمناورة ، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب الى التصديق من التذرع به الى تدبير لقاء •

السبب في الحقيقة أنه لا سبب هناك •

السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا الى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة • وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر أنه فعل شيئا لا علة له ، ولا هو يقبل التعليل :

كذلك يفعل الاب الذي يرى بين يديه ولدا مريضا ميؤسا من شفائه وهو لا يستقر الى التسليم ، وكذلك يفعل المحرج الذي يرى أن العمل

واجب لانه خير من سكون لا صبر له عليه ، وكذلك يفعل الذي لا بد أن يفعل ، لانه بالفعل يستريح • أما بالسكون فلا راحة ولا أمل في الراحة •

وأتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون •

لم يكن هذا الحديث بالمقصود ، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض •

وأتبع الحديث موعد وزيارة •

وجاءت في الموعد وهي تبدو بتلك الطلعة التي يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة : طلعة السفير الذي يدخل المملكة الغريبة ولا يدري أحرب أم سلام ، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقي أن يبرز الضعف ، ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به في الحقيبة المغلقة ، ولا يتجهم ولكنه لا ينطلق ويتبسط ••• فلم تتهيأ للموعد بزينتها التي تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه ، ولكنها لم تهمل زينتها اهمال المعرض قليل الاكتراث ، فهي زينة صالحة مع قليل من الاعتذار ، واذا وصل الامر الى هذا فأي اعتذار لا يغني غناه ولو جاء عفو الساعة ؟ !

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين : بالدعابة والتهكم ، أو بالاسى والتضعضع • فأما في هذه المرة فسلاح الاسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التي تتردد بين الحرب والسلام • فدخلت من الباب وهي تشهر سلاح التهكم والمناوشة ، والتفتت وهي داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير الى غير المكان المتوقع ، فقالت وهي تلقي بقبعتها :

من أكبر العجب انني وصلت الى هنا ولم أصل الى المعبد !

قال «همام» في سره : ويحك ! هذه تحية وعظك ! ثم أجابها من نمط تحيتها قائلا :

معبد ؟ استغفري الله يا أمة الله ! ! وهل تستطيع قدماك أن تحملاك الى المعبد ولو قادك اليه ألف دليل ؟

قالت ولم تتريث : انه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذي تحملني اليه قدماي ! !

قال : وهل تحسبينني أغتبط بهذا التقريظ ؟

قالت : معاذ الله ، ولا سيما وأنت بخطابك صاحب دعوى في الهداية والارشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة ... ومع ذلك لا أظنك آسفا لهذه الغلطة .

وبدأ في نغمة الدلال بعدما أنست من لهجة الحوار ان الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف . ثم دنت منه تقبله فقبلها وضمها وأجلسها وجلس الى جانبها وهو يغمغم متخاذلا : لو أنها غلطة قدمين يا «سارة» ؟ !

قالت غلطة قدمين أو غلطة يدين ، ألا تستطيع أن تتعلم «الربوبية» ساعة وتغفر الزلات ؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى الا أنهـا تقول فيها : أنا أعرف كيف أرضيك ؟ أليس كذلك ؟

فجاراها في الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق معا : وهل احرص عليك يا ملعونة الا لهذه الحذلقة ؟ متى علمت أن ربا من أرباب الاساطير غفر الزلات لشريكة قلبه ! انما يغفرون للمخلوقات التي تخون المخلوقات من أمثالها ، اما « الخيانة العظمى » فأين هم الارباب الذين يغفرونها ؟

* * *

وأطمأنت الى مكانها ، وشعرت أنها في بيتها ... نعم في بيتها لا في

« سفارة » تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة ، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه . الى أين ؟ الى « الرشاش » كعادتها في كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء ، لانها لا تميز الفصول كما تقول الا بالتقويم وجريدة الازياء !

أفي هذه تريد التفريط يا همام وهي في قبضة يديك ؟ لا يا صاح ! لست معك في هذا ... انما التفريط فيما يعوض ويستبدل فأما الذي لا عوض عنه ولا بديل له فان احتمال الاذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه .

وانه لفي هذه المناجاة اذا هي تتهادى وتنفض شعرها كما تنفض الفرس الكريمة عرفها ، واذا هي أمام المرآة مصقولة ندية كالثمرة الناضجة في شعاع الفجر البليل ... وكالشيطان !

منذ الازل وقفت هذه الفتنة الى جانب ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها مشترعوها وأصحاب النظم والدساتير فيها ، وقالت هذه الفتنة كلمتها وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت وأوعدت ووعدوا وأوعدوا . وأمامك الناس جميعا فاسألهم واحدا واحدا : كم مرة سمعتم هذه وكم مرة سمعتم هؤلاء ، وأنا الضمين لك ان في تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشيء من الاشياء .

ليست هي المرأة المسموعة هنا ولكنها هي الطبيعة .

والمرأة والرجل والحكماء والحكمة ألعوبة الطبيعة التي لا تسأم اللعب ، ولا تعرف الجد لانها لا تعرف التعب . وربما كانت المرأة أضعف هذه الالاعيب كما يكون الطعم أضعف من السمكة التي تأكله ، وان كان

الطعم ليقودن السمكة الى الهلاك •

ومن القاضي الفاصل بين الطبيعة والحكمة ؟ انما القضاء لمن ينتظر منهما الحجة الاخيرة والنتيجة الخاتمة •

ولكن ليس للطبيعة انتهاء •

فهي في جميع الازمان صاحبة القول الاخير •

في ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الانسان ما لا ينسى ، ويخطر له الاغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه ، ولقد خطر هذا لهمام في تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه الى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر الا متعتها • فتمنى في تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أمل ، وماضيه معها أقصر ، وشرطه عليها أقرب وأيسر • اذن لاكتفى منها بما تعطيه ، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه •

ان الرجل الذي يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفي منها بساعة من يومها ، ولكن هل يكتفي منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره ، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذي يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا في غرام بغير فراق ؟

ان الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن • وان التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة ، فهي اما صنعة الفنان المنسوبة اليه والفترة المردودة اليها أو هي ليست بصنعته على الاطلاق •

فلا تقريب ولا توسط في هذه الامور •

وهذه المرأة ، بل هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها ، هذه المرأة التي لا مرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره في ابان هواها ؟

ليست الحكمة هي التي تتكلم هنا ولكنها هي الطبيعة ، ومن ذا يقاوم الطبيعة في غوايتها غير الطبيعة في ثورتها ؟؟ ان الصراع هنا بين ندين متكافئين ، والويل للفريسة المطرودة بين الندين .

لا ! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما في وسعي من احتفاظ وصيانة ، ولكنني لن أحتفظ بها الا تحفة نفيسة .... فاذا بعتها فلن أبيعها الا وقد ايقنت أنني غير مغبون فيه اولا نادم عليها تحفة بين يدي لا شك فيها .

أقول حينا انها تحفة نفيسة فليس في كنوز الارض ما يعدلها ويقوم بثمنها

وأقول حينا أنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر

وهذه هي الحيرة . فقولي يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة ، وقولوا لي يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن ، ويا من يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين ما يباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الارض وذخائر البحار

لا ! لن أبيعها الا بدرهم . فان كانت الاخرى فلا بيع ولا شراء :

« لما غلا ثمني عدمت المشترى »

نعم وعدمت البائع أيضا ...

هذه هي الحيرة فكيف الخروج منها ؟ لا حاجة الى اكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة . فمن ذاك الذي تتاح له تلك النظرة ؟

كان همام في تلك الايام يقرأ رواية « سيدة الاكاذيب » للكاتب الفرنسي الكبير بول بوربيه ، ولعله قرأها لعنوانها وما يرجو ان يطلع عليه من أكاذيب سيدتها ... وفي الرواية امرأة لعوب من نساء الاسر المترفات ، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا ، وعاشق ناشىء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه ، وكل من هؤلاء راض بنصيبه

الا العاشق الفتى الذي يتنطس ويتوجس ويلح في كشف الاسرار فيعمد الى الرقابة ولا يلبث أن يخلص الى الحقيقة

فما الرأي أذن في الرقابة ؟

ان نظرة من رقيب أمين لتغني عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف ... فان لم يكن من الرقابة فلتكن الرقابة ، ولكل شيء من جنسه آفة !

وأثلجت تلك الخاطرة صدر همام وان كانت قد غضت من سروره باللحظة التي هو فيها ، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب ؟

تتابعت الخواطر عدوا دراكا في رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتنامى شغفه بها كلما تمادى في تفتيشها واستقصائها ، ولم تستغرق كل هاتيك الخواطر منه الا ريثما فرغت « سارة » من تسريح شعرها وتجفيف اهابها ، لانه كان يستعرض هاتيك الخواطر كما يستعرض صفحة مفتوحة بين يديه يحيط بها في نظرة واحدة ، ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات غير أنها فطنت لما يجول في خلده وادركت انه ليس معها بجميع قلبه ولسانه ، واشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما . فاستدارت اليه من المرآة متفترة متكسرة ، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت : اراني متعبة .أريد ان اذهب أو أريد ان انام

* * *

وانقضى اليوم بسلام ، ونسيا او تناسيا خطاب « الوعظ » بعد ما كان من عبث التحية الاولى ، ونزلت سارة وهي مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء ، ومن داب المرأة اذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الاعباء ، وهذا الذي يلوح للرجل في صورة البراءة فينخدع ، أو

هذا الذي يسمونه احيانا بعمق المرأة وقدرتها على اجادة الرياء واخفاء ما في الطوية ، وانما هي خفتها كالطفل الذي تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل ، وقدود « همام » لو يستطيع ان يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة ، وما هو بمستطيع . فليرجع الى الرقابة فهي مرجع الانصاف ومقطع الخلاف ، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الارض وذخائر البحار ، او بدرهم لا يندم عليه ملقيه في التراب

وكيف الرقابة ؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها

وبقي امر الرقيب والعثور عليه

فمن يكون هذا الرقيب ؟

لم يشرع همام في بحث هذه المسألة حتى وضح له أنها مشكلة كثيرة الشعاب

فخطر له في بداية الامر ان يستعين برجل يؤدي هذه المهمة وينقده على ذلك اجرا يرضيه

ثم قلب الامر على جوهه فرأى ان هذا الرجل المستأجر يحتاج الى رقيب عليه لضمان اخلاصه وجده وحسن التبصر في عمله . فاذا بغير رقيب فأغلب الظن انه يأتي في آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجور السيارات والجلوس على القهوات ورشوة الخدم والبوابين ، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الاجور

ثم تنقضي الايام وهو لم يعرف شيئا ولا أعان على معرفة شيء .

وهبه عرف بعض الحقيقة او عرف الحقيقة كلها فهذا أخطر واخسر ... لانه يستغل معرفته كلما احتاج الى المال لابتزاز الاتاوات والانذار

بكشف الاسرار ، فيوما يهدد السيدة ويوما يهدد السيد ويوما يقارب الاقرباء والاولياء ويلوح لهم بما وراء الغطاء . ولعله يختصر الطريـق من اوله فيطلع السيدة على مهمته ويفسد الامر فسادا لاصلاح بعده

رقيب اجير لا ينفع في هذه المواقف

ولن ينفع فيها الا الصديق الصدوق

نعم لا ينفع فيها الا رجل يعنيه ان يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها ! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق ؟ مئات ؟؟ عشرات ؟؟ آحاد ؟؟

ان الناس يحسبون « الضيق » محك الصداقة الذي لا يكذب ولا يخيب

والناس في ذلك مخطئون

لأن الصديق الذي ينجد صديقه في الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه في أعماق السريرة

وليست المعونة الصادقة هي المعونة التي تدخل في رقابة العرف او في رقابتك انت بينك وبين صديقك ، ولكنها المعونة التي لا حسيب عليهـا غير الضمير ، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور

كثير من الاصدقاء يعينون أصدقاءهم في الضيق لان العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للامانة والوفاء وجميل الفداء

وكثير من الاصدقاء يعينون المرء على الشئون التـي يشعر هـو بمعونتهم او بتقصيرهم فيها ، لانه يحمد لهم ما صنعوا ويجزيهم بمـا أسلفوا ويرد لهم ما اقرضوا

اما الشؤن التي لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليهـا أقل من القليل ، وهمام ـ أو غير همام ـ سعداء ان ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الاعوان

في هذه الشؤن يستطيع الصديق ان يقصر وانت لا تشعر بتقصيره ،

وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم ، لانه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى .. فكيف يتقي مغبة التقصير ويصير في سبيل ذلك على الجهد العسير او اليسير ؟

واذا انكشف تقصيره فمن ذا الذي يلومه ؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء اضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة

ذلك كله على أهون الفروض .

أما اصعب الفروض فهو ان تنقلب الرقابة الى مطاردة والمطاردة الى اقتناص .. وليس اصعب الفروض دائما بأبعدها واندرها في الوقوع !

حيرة جديدة « نجا » اليها همام من الحيرة الاولى .. والحيرة الاولى باقية كما كانت في موضعها القديم

وان هماما ليضرب اخماسه واسداسه ويبرح في ضربه وايجاعه اذا بالقدر يحل المشكلة العصية اسهل حل مستطاع ، واذا بالسماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود !!

ــ ماذا جاء بك يا أمين ؟

ــ جاءت بي اجازة ايام

ــ ويحك ! أنت طول عمرك تفصل من اعمالك بغير داع . أفما كان في وسعك هذه النوبة ان تنفصل فصلا نهائيا يا لئيم !

قال أمين وقد فوجيء : لماذا هذا الاستعجال على الفصل ؟ ما الخبر ؟

قال همام : الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة .. أطول من ايام ... ولعلها اطول من اسابيع

وسرد له المسألة بأقصى مارآه صالحا من التفصيل والاسهاب ، فلم يكذبه حدسه ، واسرع امين بالاجابة والموافقة ، واوشك ان يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه ، ووعد أن يأتي بقصارى جهده في هذه الايام القليلة ولا حاجة الى الفصل المألوف !

لم يكن همام قدنسي أمينا في مشكلة الرقابة ، وليس أمين بالصديق الذي ينسى في مشكلة من قبيلها ، لانه يؤمن بالواجبات الشعرية اشد من ايمانه بجميع الواجبات الانسانية ، وهو ذو اريحية و مروءة وصدق لسان وصراحة شيمة ، ويحسب ان خيانة الصديق في العشق لا تقل عن الخيانة في اقدس الحرمات ، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشيء آخر غير مستقيم ولا جميل ! وهو اسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون .. فالى ان يمسخ طبعه وتنصلح اسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة ، واحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد

الا ان هماما تخطاه بادىء الامر لسببين أحدهما ان أمينا كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات: على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار او السيارة

وثانيهما ـ واخطرهما ـ سهوات الذكاء التي اشتهر بها أمين ويا لها من سهوات ! فهي كعيب ذلك الزنجي الذي يكذب في السنة أكذوبة واحدة ... وفي هذه الاكذوبة الواحدة قاصمة الظهور

فيجوز ان يكون اخلاصه هو كل المطلوب في هذه المواقف ، ويجوز أيضا ان يكون هو المحذور ، وهمام وحظه ونصيبه بين الجوزاين ! واليك المثال :

كان السيد امين في احدى اجازاته القصيرة ينزل بمنزل همام ، ودق التليفون عصاري يوم في مسألة عاجلة فخف همام الى الخارج واوصى امينا ان ينتظره ريثما يعود بعد نصف ساعة ، وان يستقبل ضيوفا قادمين في هذه الآونة ويعتذر اليهم بعذر همام المفاجيء ، ويبلغهم انه سيرجع بعد هنيهة ليقضي معهم الاصيل حسب الموعد.وقد عاد همام بعد نصف الساعة المقدور فلا امينا ولا ضيوفا وجد في المنزل !! وكل ما وجده بطاقات الضيوف في عقب الباب عليها كلمات موجزة تشف عن الاسف والاستغراب

ولبث همام يقدر في ذهنه ما توهمه الضيوف من اسباب مغيبه المتعمد ولامراء . فانه لا يخرج في هذه الساعة ، وليس للضيوف الا ان يعتقدوا كل الاعتقاد انه راغ عن الموعد او اخفى نفسه وتركهم يرجعون على اعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة

وبينا همام يستغرب خروج امين ولا يدري ماذا اخرجه خاصة في هذا اليوم الذي سئل فيه الانتظار — اقبل السيد امين يحمل في يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى وهو راض عن نفسه رضى الرجل الضليع بمهام الامور .

قال امين وهو يخفي اعتزازه واغتباطه بحسن تدبيره وعرفانه بالواجبات التي ينساها الغافلون :

انك يا صاح قد نسيت ان الثلاجة خالية وان الضيوف قادمون ، وقد ذهبت احضر لهم بعض الشيء فعسى ان يستطيبوه !

فضحك همام غيظا وعجبا من اهتداء صديقه الى العمل الوحيد الذي لا ينبغي ان يعمل واعتقاده مع ذلك انه هو الواجب الذي ينبغي دون سواه . وربت على كتف الصديق قائلا : احسنت احسنت يا مولانا ، وما عليك الآن الا ان تعدو بالقازوزة والفاكهة في اثر الضيوف فلا شك انهم منتظروها في الطريق ! واراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على ان فغرفاه ونطق بحكمته المأثورة كلما ادرك خطأه : « مدهش ! حضروا وعادوا ؟ ليس لهم حق ! ... ما كان يصح ان ينتظروا ؟ »

نعم كان يصح ان ينتظروا . اما هو فلا يصح ان ينتظرهم في البيت .

وكان امين وبعض صحابه يجلسون الى منتدى على مقربة من مكتب « جماعة المؤاساة » وكلهم من شراة نصيبها المكثرين ، فارتفعت الجلبة والصياح من جانب المكتب ونهض امين يستطلع الخبر ، وعاد بعد دقائق فجلس وعلى سيماه قلة الاكتراث وهو يقول : انما هي النمر الاربع الكبيرة !

فانفجر الصحاب ضاحكين واطالوا في الضحك ، وامين لا يدري مم يضحكون . حتى سأله احدهم : او اطلعت على النمر ؟

فأخذ يفطن لسهوته البارعة . وحاول ان يصلحها كعادته فقال : او كنتم تريدون الوقوف عليها ؟

فزادوا ضحكا وركبوه بالعبث من جميع نواحيه ؛ وجعل هـذا يقول له : « لا . معاذ الله . وهل يليق ان نربح الا الجنيه والجنيهين . » وذاك يجذبه من كسائه ويصيح به : « يمينا لو ربحنا النمـرة الكبيـرة لنقذفن بها في التراب . وهل ثمانية عشر الف جنيـه ممـا يساوي عنـاء السؤال ؟ » ... وذلك يناديه : اقعد ياشيخ أقعد . لا كانت النمر الكبيرة ولا كان من يسأل عنها . انما القناعة كنز لا يفنى وانما المعول علـى الدراهم والملاليم ! » .... وآخر يصطنع الجد ويقول وصاحبنا يتوقع منه الانصاف : « لا . لا يا اخوان . أنا اعرف ما ينتظر امين .... انـه ينتظر كشف الخسائر والغرامات ! »

فلم يجد الرجل مخلصا من هذه الحملة المتداركة الا ان يلوذ هربـا بمكتب المواساة ويرجع اليهم بارقام النمر الكبيرة ويقتحم في سبيل ذلـك زحام المزدحمين الذين تلاحقوا من كل صوب في تلك اللحظة ، وتكوفوا حتى اغلقوا مسالك المكتب ... وعناء على كل حال اخف من عناء

وافلح الرجل ، ووصل الى الكشف ، وكتب الارقـام الاربعـة ،

ورجع بها ليقرأها على اولئك المشاغبين الذين لا يرحمون ، ولم يبق الا شيء يسير جدا هو الذي فاته يحسب حسابه ، وهو قراءة الارقام

فان الارقام الملعونة تآمرت عليه مع المتآمرين وابت ان تنقريء لا من اليمين ولا من الشمال ولا من الاعلى ولا من الاسفل وراح المسكين يجاهد ويعالج وراحت هي تأبى وتصر على الاباء ... ويحمر وجهه ولا فائدة ! ويحملق ولا فائدة ! ويحاول ان يفسر عجزه ولا فائدة ! حتى رحمه احد الصحاب فانتزع منه الورقة فاذا هي تذكرة ترام ، واذا بالارقام مكتوبـة

على صفحة التذكرة التي تستليء بالكتابة ، ومن ورائها صفحة اخرى يوشك ان تكون فارغة لم يلتفت اليها امين لانها ــ لامر ما لا يعلمه هــو ولا يعلمه احد ــ غير جديرة بالالتفات !

لقد كانت الحملة الاولى رحمة سماوية بالقياس الى الحملة الاخيرة : فاينما تحول ببصره فثمة لسان بارز او تحية ساخرة او بويخة حاضرة ، وهو صامت يغوص في اعماق القريحة عن المعاذير والمسوغات ولا تطمئــن عزيمته الماضية الى التسليم والاعتراف

ومن عادته اذا اعتذر ان ان يجيء بطرفــة اطرف مــن الاضحوكــة الاصيلة التي اثارت الضحك والمشاغبة ، وعرف اصحابه ذلك منه فطفقوا يحرضونه على الكلام كلما بدرت منه تحفة من تحفه المأثورات ، وبالغوا في الالحاح يومئذ لينظروا بماذا يتجلى عليه السهو المبارك بعد تلــك السهوات الالمعيات ، فلم يخلف ظنونهم آخر الامر فتكلم ، وكان ما قال بيت القصيد وآية الآيات في ذلك اليوم الخصيب

اقلب من الدفاع الى الهجوم وقال لهم مستجمعا سكينته واعتداده : تترقبون الوف الجنيهات ! تريدون ان تكسبوا .. ! وهل انتم وجه مكسب الله لا يكسبكم !! انني تعمدت ان اجيئكم بالارقام ، واكتفيت بما اذكر من ارقام الاستاذ همام وارقامي ولم احفل بما عدا ذلك ! وهل كنتم مــن البلاهة والغفلة حيث تحسبون انني اراجع لكم ارقامكم ومكاسبكم لا كسب منكم هذا الهراء الذي لا تفلحون في غيره !

ويلاحظ انه لم يختلق هذه المعذرة الا بعد ما حصل الصحاب علــى الكشف وراجعوا الارقام ويئسوا جميعا من الارباح ، ولم يختلقها قبــل ذلك مخافة ان يكذبه الواقع عند مراجعة الكشف فيسقط في يديه

الا انهم لم يتركوه ينعم بأكذوبته المهلهلة التي ساقه اليها الحرج والنكاية والمزاح وراحوا يقولون له بعد ما اوسعوه سخرا واشبعوه هذرا : يــا مكابر ! اتذكر سبعين نمرة بين كبيرة وصغيرة قرأتها منذ ايام ولا تذكــر

نمرا اربعا قرأتها منذ دقائق ؟ ! طيب ... ها نحن اولا معك . اعد علينا النمر الاربع ولك عن كل واحدة جنيه !

فحار وابلس ابتأس وعبس ، والقى يد السلم واستسلم ، وزادت تجعيدة حديثة الى جانب كل تجعيدة قديمة في ذلك الوجه المشدوه

* * *

تلك نماذج غير منتقاه من سهوات السيد امين حديثها وقديمها ، نضعها الى جانب اخلاصه واستقامة طبعه فنفهم المركب الذي ركبه همام من تفويض الرقابة اليه ، واصدق ما يوصف به انه كالسفينة التي لهـا شق متين يكافح الامواج والرياح وشق هزيل محلول الدسر والالواح ، ولا مناص من السفر عليها ولا امان في البقاء على الساحل

فأما الرقابة فلا حيلة غيرها

وأما الرقيب فغير أمين لا يوجد

وكل ما يملك همام من اختبار فهو الاكثار من التوصية والالحاف في التحذير والمعاودة بالتنبيه . وقد فعل جهده ثم اغمض عينه ، واوى الى السفينة وهو يترقب الغور كما يترقب ساهل النجاة

مضحكات الرقابة

ترى لو شهدنا حوادث الحياة كلها دفعة واحدة هل تصعب او تهون؟ وهل يقع أثرها في النفس فاجعا او مضحكا سخيفا مغريا بالهزء والابتسام ؟

تشغلنا الحادثة اياما وشهورا فلا نفكر الا فيها ولا نحسب ان في الدنيا امرا جديرا بالتفكير والاهتمام غيرها ، ولا نظن اننا نطيق العيش ونصبر على البقاء لو تحقق ما نحذره منها ، ولا نرضى من احد ان يستخف بها ويستكثر ما نعيره اياها من الهم والقلق والاهبة ، ثم تمضي الحادثة وتتبعها العاقبة بعد العاقبة فتصبح عندنا ـ نحن لا غيرنا ـ تسلية نرويها ونضحك منها ونتفرج بها كما تتفرج برؤية المشاهد الفنية التي تقع لشخوص المسارح الخيالية !

ترى لو رأينا الحادثة وعاقبتها او الحوادث وعواقبها دفعة واحدة هل تكون كلها فاجعة كما نراها في حينها ؟ او تكون كلها خفيفة مسلية كما نراها بعد فواتها ؟ وهل يكون اجتماع الحوادث بمثابة الفاجعة تضيفها الى الفاجعة فلا تقوى النفس على احتمالها ؟ او تكون بمثابة الشيء يلغيه ما بعده فيطفىء بردها حرها ، ويذهب قيظها بشتائها ؟

سواء كان هذا او ذاك يخطيء من يظن ان عبرة الايام تعلمنا الاستخفاف بالحاضر كما نستخف بالماضي . فانما هي تعلمنا الاستخفاف

بالماضي ولا زيادة ولو علمتنا ان ننظر الى حوادث اليوم كما ننظر الى حوادث الامس لحلت نسج الحياة وفكت خيوطها ومسحت اصباغها وتركتنا امام حياة لا لون لها ولا مادة ! كما تجتمع الوان الصورة الزيتية مرة واحدة بدلا من تتفرق في مواضعها ، فلا ملامح اذا اجتمعت ولا اشكال ولا الوان !

ان خير ما يتاح لابناء الفناء ان يقلقوا ويضحكوا من القلق بعد فواته فيأخذوا الدنيا طبيعية فنية على هذا المنوال : طبيعية حين يعيشونها ويقلقون بشواغلها ، وفنية حين ينظرون اليها على البعد بعد ذلك كما ينظرون الى روايات الخيال

بدأت الرقابة وفاقا لما كان منظورا منها بغير اختلال : امانة بالغة وشدة لا هوادة فيها ، ثم مضحكا تلا تنقطع يوما الا ريثما تنقضي عليها ثلاثة او اربعة اعوام ، اما في اوانها فايسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون ؛

ومن اليوم التالي ظهرت امانة الرقيب حرفا حرفا في كل جليلة ودقيقة، فطابقت رواياته كل ما كان يعلمه همام من اخبار سارة التي تحكيها له طواعية او التي يتحرى سؤالها عنها في ثنايا الحديث ، وما كان همام يطلع امينا على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التي ينويان اللقاء فيها ، فكانت مطابقة الاخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشي والملابسات مؤكدة لهمام ما كان يعتقده من صدق أمين وصواب الاعتماد عليه

وجاء أثناء الرقابة يوم شات من ايام الزمهرير عاصف قارس مطير ، فاشفق همام ان يتصرف امين فيستبيح لنفسه اهمال الرقابة في ذلك اليوم ولا لوم عليه . اذ اين هي السيدة الرشيقة الانيقة التي تغادر دارها بين او حال الارض وسيول السماء ؟

ان امينا لمعذور اذا هو استباح الاعضاء والهوادة في مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس ، ولكن الذي يعرف سارة لا يعرف يوما هو احق بتشديد

الرقابة من ذلك اليوم ، لان هذه الاوقات هي اوقاتها المختارة للتسلل والروغان ، وفرق عشرين درجة في ميزان الحرارة الجوية لا يقابله فرق مثله في حرارة جسمها الفتي المنيع ، لانها لم تعرف قط ما هو مدلول كلمة الزكام في الاناف والاجسام

اشفق همام من ذاك فهبط ملتفا في دثاره ، وركب ساعة ليبلغ الى المكان الذي يتربص فيه امين • فالفاه متربصا حيث يقيم كل يوم

لا خوف اذن من هذه الناحية

ولا غبار على نتيجة الرقابة في اليوم كله • فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت الى منزلها قبيل المغرب ، ولم تذهب فيما بين ذلك الا الى منزل صديقة عزيزة لها كانت تناجيها باشجانها وتطلعها على اسرارها ، فلم يشأ همام ان يكون مفرطا في التوجس والافتراض • ولم يلاحظ الا ان الخروج في اليوم المطير لزيارة صديقة امر غريب مريب ، واكتفى بتفسير هذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات « سارة » وبدواتها التي لا تتقيد بالعرف والاصطلاح •••• ولو اتيح له ان يعلم يومئذ ـ كما علم بعد شهور ـ ان الصديقة العزيزة لم تكن اذ ذاك في المنزل ولا في القاهرة لما كبح ظنونه عن الافراط في التوجس والافتراض

* * *

واخلص امين لطبعه كما اخلص لصديقه • فلم ينس حق السهوات عليه وبالغ في افانينها ومعجزاتها بمقدار ما كان يبالغ في اجتنابها والاحتراس منها

وكان الرسم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل ما يراه ويسمعه منذ خروج سارة من منزلها الى عودتها كائنا ما كان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة في نظره • فلا يسقط شيئا ولا يستهين بشيء وان هان ،وضرب همام مثلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شيء لا يختلف

مدلوله في رأي أمين ولكنه يدل على الكثير في رأي همام ، وضرب مثلا آخر أن تركب السيدة الترام فتتخطى مقصورة السيدات الى مقصورة الرجال ، أو تتخطى هذه وتلك الى كراسي الدرجة الثانية • فلا يمكن ان يكون ذلك بغير دلالة تقترن بدلالة اخرى فتعين على جلاء الحقيقة ، وهكذا من أمثال هذه الطفائف والقرائن التي لا غنى عنها للوصول الى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة •

ولم يكن في سرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لأنه كان مطبوعا على التقاط ما يبصر ويسمع ومحاكاة ما يلتفت اليه من اللهجات والحركات والاشارات • فجاء يوما بعد مراقبة نهار كامل بحكاية ماشك همام وهو يسمع أو اثلها انه لن ينتهي الى او اخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة ويتطرق منها الى النبأ اليقين •

قال : لقد خرجت السيدة عصرا تلبس رداء عنابيا ومعها طفل صغير، فذهبت الى بيت صعدت الى دوره الاعلى ثم نزلت ومعها سيدة تكبرها بعدة سنوات ، ومضتا الى دار من دور الصور المتحركة في شارع عماد الدين فجلست انتظرها على القهوة الملحقة بالدار ، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة ! •••

ما شك همام حين وصل أمين الى هذه المرحلة من حكايته ان في الامر شيئا وأنه يتعقب الاثر الصحيح الى النتيجة الصحيحة •

نعم ان أمينا أخطأ اذ لم يدخل معها الى قاعة الصور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد اصلح ذلك الخطأ وعفى عليه ••• وما يراه بعد الخروج هو المهم ، وليس ما يراه في القاعة ان رأى هناك ما يستحق الالتفات ••• والا فلماذا تخرج بعد نصف ساعة ؟ ولماذا تخرج وحدها ؟

وذلك الثوب العنابي أليس هو الثوب الذي تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه أجمل عليها من سائر ثيابها ؟؟

فالحقيقة اذن على مدى خطوتين ، ويستر الله فلا يعثر امين باحدى سهواته في احدى هاتين الخطوتين . وماذا عسى ان يعثره بعد هذا المدى ؟ وكيف يعثر يا ترى ؟ ذلك بعيد .... وأغلب الظن ان الامر سينكشف وان الغاشية ستنجلي ، وان ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين .

ـ ثم ماذا ياأمين ؟

ثم سهوة من تلك السهوات التي تنقض في صدمة المباغتة ، والتي لا ترد على البال ولا تقع في الاوهام ، والتي يخيل اليك ان أمينا لم يعثر بها الا لانه تعمد ان يعثر بها واصر على تدبيرها ، لان ما صنعه هو الشيء الوحيد الذي لاينتظر ان يكون .

اعتدل امين في مجلسه واتكأ على عصاه ، وقال في راحة الذي لم يضيع اقل فرصة واقصى احتمال :

ـ ان السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة !

ـ ويحك ! والى اين ذهبت

ـ لا أدري

ـ كيف لا تدري ؟ وألم تتبعها ؟

ـ لا . لأنني ما شككت في انها خرجت لحاجة لها ثم تعود .... ولا يليق ان اتبعها .

فانتقض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به : يا أخرق ! أليس في دار الصور ما يغني سيدة مهذبة عن الخروج الى منعطفات الطريق ؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته « الجبارة » .. واخذ في تمحل الاعذار

والمسوغات ، وهو ــ على صدقه ــ لا يتورع في هذه الازمات المحرجات عن اكذوبة صغيرة يتقي بها التهزئة والتسخيف اشد من اتقائــه الملامــة والتعنيف ، وقال : الواقع انني صادفت والدي عابرا فحياني وجلس معي وخشيت ان انا تبعت السيدة فجأة ان يستريب ويتكدر . فلبثت في مكاني على رجاء ان تعود .

ومن الجائز حقا ان تكون السيدة قد ذهبت ولم تعد لأنها واعدت صاحبتها ان تلقاها في مكان اتفقنا عليه . ولكن الى اين ذهبت ؟ ولماذا ذهبت ؟

هنا الحيرة التي لا تدع للذهن ان يتجه خطوة الى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة مثلها الى الشمال . ثم يتبلد حائرا في موقفه لا الى هنا ولا الى هناك .

في الحي الذي قصدت اليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية وفيه اسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق ، وبعض الاطفال في احــدى الاسرتين مريض . ويجوز ان تكون سارة قد ذهبت الى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز انها ذهبت لسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفا عليه من العدوى ، وما عدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة ، وان رجحت احدى الكفتين فانما ترجح بالتخمين والتقدير ، وليست الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذي لا لبس فيــه .

ويجيء أمين في يوم آخر بنبأ من هذه الانباء التي تدنو بهمام الى مدى خطوتين من الشاطىء ثم تقذف به في لمحة عين كما يقذف الموج الغريق الى مدى آباد لا تعبر ، وقد حدث نفسه بالنجاة .

ذهبت السيدة الى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة ،

فحمل الطفل وقبله ودخل معها الى الدار وودعها بعد الانصراف الى ان ركبت الترام الذي يصل بها الى المنزل • فتبعها أمين ولم يتبع الشاب الذي هو موضع البحث والسؤال !!

وتضاربت الظنون في وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هـو وأمين في الطريق فاوشك أمين ان يقفز مـن جانبـه ويعـدو وراء شاب مقبع (١) طويل وقد صاح في صوت مسموع : هذا هو الشاب !

فلم يمنعه همام ان يستمر في صياحه وعدوه الا بمشقة ، وادرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى امامه ؟ ••• اخاها !

ولا ذنب لسهوات امين في هذه القصة الا في غفلته عن متابعة الشاب وايثاره ان يتابع السيدة بعد ركوبها الترام •• كأنما المقصود ان يعرف منزلها لا ان يعرف من كان معها ، اما البقية فالذنب فيها ذنب همام لانه كتم عن صاحبه كلمايتعلق بسارة غير شخصها ومسكنها • حذرا مـن سهواته لا حذرا من نياته •

* * *

ولزمت سارة مسكنها يوما لا تريمه الى زيارة ولا الى مسرح ، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا ايام حفلاتها وولائمها غير مرات معـدودات • فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة وعالم الحب والمحبين •

اما عالم الضمير الذي يروده الانسان وحده ويأنس فيه الى التفرد والوحشة فذلك ابغض العوالم اليها واثقلها وطأة عليها • لاتمكث فيه هنيهة الا باغراء كتاب ، وقلما يكون الكتاب عندها الا منفذا الى الدنيا الواسعة ، ودنيا الحب والمحبين •

---

(١) يلبس القبعة .

فسنحت لهمام خاطرة ان يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك احدا تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة ، ولما سأل أمينا عن النور في جناح سارة من اين كان مصدره في ذلك اليوم علم انه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التي يعلم همام انها حجرة النوم ، وهي حجرة لا تأوي اليها سارة الا لتنام ، ولم تتعود ان تستقبل زوارها ولا ان تقرأ في غير حجرة الاستقبال ، ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها في منزلها .
فلماذا تختل في ذلك الموعد من المساء ؟ لماذا تختل القاعدة في الموعد الذي تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة ؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل الزم واجدى من الرقابة خارجه ولو يوما من الايام . وقد ادى امين رسالته في هذه الرقابة الجديدة وخاب كما خاب في غيرها ، لولا ان الخيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة ، فما سلم منه الا باعجوبة من اعاجيب السياسة!

ذلك انه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئا ليقرأ الاسماء التي على الابواب . ولمحه فتى يهبط من اعلى المنزل فظن انه يتلصص او يتجسس ، وليس التجسس ببدع في ذلك الحين .

فانتهره الفتى مزدريا ، وناداه متافقا : مالك تتسكع على الابواب يا هذا ؟ ماذا تريد ؟

ولم يكن امين بالذي يتراجع اذا هو جم ، ولا بالذي يلين اذا خوشن. وقد تملكه الربكة اذا خوطب في رفق وادب واضطر الى تدبير الجواب وتحضير المعاذير . فأما اذا قوبل بالتوقح والاهانة فلا ربكة ولا عناء ... انما هي دقة بدقة وصيحة بصيحة ، وصفعة بصفعة ، اذا استطرد اللجاج الى هذه النهاية .

فما حفل امين بالفتى ولا زاد على ان نظر اليه متجهما متجمدا وقال : امض في سبيلك . فليس هذا من شأنك !!

ولقد دهش الفتى والتفت اليه مذهولا وهو يتمتم : ليس من شأني كيف ؟ انني اسكن هنا ... ان في المنزل آلي وحرمي ! يا لها من اعاجيب يا لها من صفاقة ؟

ولكنه مع ذلك نزل . وسمعه امين ينادي على البواب من اقصى الطريق ويقول له : اين انت ؟ وماذا عساك ان تصنع اذا كنت تسمح لهذا الجاسوس ان يقتحم البيت ويتسمع على الابواب ؟

جاسوس ؟

لقد سلم امين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية ، ومن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف في تلك الايام ؟

سلم امين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولاوجل !! وألهمه الله ان يتشمخ بانفه ويزجر البواب قائلا : انتم تأكلون بغير عمل . أنتم لا تستحقون اجوركم ... لقد صفقت وناديت فما اجابني احد . ولقد حاولت ان اراك لاسالك عن جناح فما اهتديت لك الى شبح ، ولو سكنت في هذا البيت لما ابقيت عليك !

فقبع البواب واستخذى ، ولاح له انه غانم سالم اذا انجاب هذا الرجل السليط سواء كان جاسوسا او باحثا عن مسكن ، وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله : معذرة يا بك ! لا بأس يا بك ! حقك علينا يا بك !

وافترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة

الا ان اميننا قضى منذ تلك الساعة على مستقبله في الرقابة مضروبا وناجيا او غير ناج !! فما كان في وسعه ان يتراءى وهو آمن على جلده « حول مكان الواقعة » كما يقولون في لغة الشرطة قبل ان تنصرم ايـام وايام ... وشاءت المصادفات الا تكون الخسارة عظيمة . فان عنـاء الرقابة قد ضاع بغير جدوى ، وان الاجازة قد قاربت الانتهاء .

القطيعة

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة

حصلت ولم يردها احد ، ولم يغتبط بها احد ، كأنها مخلوق قائـم بمعزل عن ابويه : تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه او يريد له ابواه : يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه : بل كانه الجنين الذي استوفى حمله فلا بد له من الظهور ولو ماتت امه وانفطر قلب ابيه •

او لم يقل همام انه لن يفرط في هوى سارة ولن ينفصل عنها الا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها ، وعاجز كل العجز عن صيانتها •

او لم يقل انها حلية موثقة ان غلت سومت بكنوز الارض وذخائـر البحار ، وان رخصت هانت عن السوام والصيان •

او لم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على ان لافراق ولا قطيعة الا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة •

بلى ! قال كل ذلك ، ونوى كل ذلك ، ولكن الحب الذي اوحـى اليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات ، ولم يبق الا ان يدفن ! وان يحملـه الى الدفن ابواه ! وهما آخر من يود له الموت ، ويخف به الى ذلك المصير

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكما يصدر بعد نظرها لكان عجيبا ان تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة ، وان تقع العقوبة قبل وضوح الجناية.

ولكن من هو القاضي هنا ؟ ومن الجاني ؟ ومن الفريسة ! ومن صاحب الفصل وشارع القانون ؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضيا حتى تراه جانيا وتراه فريسة وتراه مقضيا عليه ، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة ! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة او يشتعل كما تشتعل النار .

هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذا تنوي وماذا تريد ؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد ان تعمل . كالذي يهرب من السيل ليقع في الهاوية ، وكالذي يهرب من البركان ليقع في اللجة الزاخرة ، وكالذي يهرب من النمر ليبتلعه التمساح ، وكالذي يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح . كل ما انت قادر ان تجزم به هنا انه لن يستطيع البقاء حيث كان .. وهل يستطيع البقاء حيث صار ؟ كلا ! ولا هنالك يستطيع البقاء .

فاذا سألت لماذا اعتزم همام القطيعة بعد ان كان يعتزم التربص والمطاولة ـ فليس سبيلك ان تعلم انه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها ، وانما سبيلك ان تعلم انه لاقرار على ما كان فيه ، وانه مدفوع الى الهرب منه كماينْدفع الهارب من النمر الى التمساح .

* * *

في ايام الرقابة وبعدها باسابيع قليلة تكررت الزيارات وتسابق همام وسارة في الاستزادة منها وهما يتكلفان ، ولا يجهلان انهما يتكلفان .

اجل ما كانا يتمليانه من سويعات الهوى في تلك الايام انما كان بالقياس الى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة في العلب بالقياس الى الثمار على اشجارها بين غياضها وانهارها .

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويعات المصطنعة . ولكنه هو كان يشعر شعورا لا يزال يعاوده ويبرز امامه كلما جهد في تبديله والاشاحة عنه بخياله : كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفي جوار مقبرة ، فمن حيثما اقبل او اعرض فهنالك ظلال الموت ، وكآبة الفناء ، وسوانح الاحزان .

ومن اعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقي بلفيفة الا اومأ الى من حوله في طلب لفيفة اخرى .

وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل ان يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام . ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدا ، واستبشر قائلا : بركة يا عماه ! ان الذي يتطعم الدخان يتطعم العافية ، واراك تتقدم الى الشفاء ان شاء الله .

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين . فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها ، وانه ما دام يشتهيها فهو على رجاء في العافية والبقاء .

لقد كان يدخن ويبالغ في طلب التبغ خوفا من خيال الموت لا سرورا بموالاة التدخين . وما اقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام .

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب اضعاف ما احرقا في عنفوانه وانطلاق طوفانه . ولكنهما يفرطان في الحب ويتكلفان الافراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه ، ولاقبالهما على شتائه الاجدب لا لاقبالهما على ربيع بهجته وروائه

وكانا في عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار ، ويتغاضبان

ولا يجفلان من الغضب ، ويختلفان ويلحان في الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والالحاح : جسم فتى قوي فماذا تضيره هبة من عاصفة او لفحة مـــن هجيـــر .

فلما شاخ الحب اجفلا من الغضب والخلاف ، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه . فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران علـــى خصـــام .

سرور مشكوك فيه ، وان غاب عنه الشك فهو هزيل

وألم حق لا شك فيه ، ثم يتلو اللقاء فيزيد هماما علامة مـــن علامات الخيانة التي ليس بعدها من اقناع عنده غير يقين اللمس والعيان .

وانهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطـــة والمـــراء اذا بالغضب يدفعهما في شلاله بين صخوره واوحاله فيندفعان ويندفعان كابشع ما يكون الهياج والثوران ، وكأنما هما نادمان على ما كان من مصانعـــة وبهتـــان .

كلا ! لا جدوى من المراء . لابقاء لهذه الحال . لا مناص من الفراق ان كان لا مناص منه .. ولا مناص !

* * *

كانا يتلاقيان ــ اذا لم يتلاقيا في المنزل ــ عند مفتـــرق طريـــق في الضاحية ينشعب يمينا الى ناحية الصحراء ، ويسارا الى ناحية الانديـــة ودور الصور المتحركة ، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات الى حيث تواعدا من قبل : فاما في الصحراء او في بعض الاندية يدخلانها على انفراد

وقد تواعدا ــ بعد اسبوع من تلك الغضبة الثائرة ــ على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق . ليعطيها اوراقها وصورها وذكرياتها ويسترد

منها اوراقه وصوره وذكرياته ، ثم يفترق كل منهما في طريقه الى حيث يختفي من حياتها وتختفي من حياته .

وقبل الموعد بساعة اخذ في جمع تلك الاوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح . فيالله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة ! وكم تختلف المعايير والاحجام في موازين الاكف والاذهان : لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة ، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكانما يزحزح جبلا راسخا يشل السواعد والاقدام دون صخرة واحدة من صخوره .

ومشى الى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا اكراه امشية الرجل الذي يسعى بقدميه الى غرفة الجراحة ليبتر عضوا من اعضائه غير آمن ان يكون في بتره الموت ، أو مشية الامهات اللواتي كن فيما مضى يحملن فلذات أكبادهن الى مذبح الارباب قربانا غير رخيص و لامزهود فيه .

وسبقها الى الموعد فانتظرها دقائق معدودات لاحت له كأنها آباد ، ولكنه في الواقع كان يتمنى لها الفوات .

ثم اقبلت في ثوبها العنابي وطرتها المشتهاة ! ونظرت اليه وهمت ان تنحرف الى ناحية الصحراء ... لم ؟ انهما اتفقا على اللقاء لحظة في مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما الى مراجعة . وكانت الطريق في تلك الساعة خالية الا من عابر بعيد او عابرة بعيدة . ففيم انحرفت الى ناحية الصحراء ولو شاء المراجعة هنالك لما اعانهما غبش المساء؟ انه حكم العادة على ما يظهر . اما هو فكل ما ساوره في تلك اللحظة خشية الانفراد والامن من الانظار ، وخشية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة او عبرة او نظرة وجيعة ، وخشية الوهن والتردد والارجاء ، وخشية العودة من البداية الى التيه المفزع الذي اشرف في تلك اللحظة على النهاية . وتلك

جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم ٠

أخذ منها واعطاها ٠ وسلم ولم تجبه او سلمت ولم يجبها ، او نسيا السلام والوداع معا ٠ لا يذكر ، وافترقا في طريقين متدابرين ٠

لو كان همام في غيرذلك الموقف لتذكر وقال وتدبر : تذكر مفترق الطريق بالامس وتذكر مفترق الطريق فيهذا المساء،وقارن بين لقاء قلمايضن فيه بشيء ولقاء قلما يجاد فيه بسلام الوداع الاخير ٠ ولكنه كان مغمور الفؤاد في جو من الغم واليأس كجو الضباب الكثيف : لا تسترسل فيه العين الى مدى بعيد ولا ترى ما حولها الا في غلاف من نسيج الاطياف ، وكل ما يذكره بعد ما افترقا ان جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب ٠

وسار في وجهة المنزل وكأنه يريد ان يبتعد منه لا ان يدنو اليه بخطاه، وفي يده حقيبة صغيرة لا يدري ماذا يصنع بها ، ويزعم انه يود لو القاها في عرض الصحراء لولا ما فيها من حديث يصونه عن الافشاء ٠٠٠ يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشعر ان ساطيا لو سطا على الحقيبة في تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام ٠

ثم دخل المنزل وتهافت على اقرب كرسي في اقرب حجرة ، فلو شهده شاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادما من مسيرة ايام لا مسيرة لحظات ٠٠٠

وكان في المنزل عشير قديم يعلم اين ذهب ومن أين عاد ٠ فلما طال سكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه : علام أنت آسف يا صاح ؟؟ هل تركت فيها من بقية وطرتشتهيها ؟ هل عندها من متعة لم تستوف شبعك منها ؟ فما بالك تأسى وتكتئب وقد اراحك الله من رفاتها بعد ان نعمت بروحها ولبابها ؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التي تفقدها مائدة تفرغ منها وقد اتيت على آخر لقمة فيها • اما حين تكون جزءا من الحياة لا تنفصل الا فصلت معها من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك اضعف العزاء ، بل هو نقيض العزاء •

انما يعزيك الزميل الذي تحسه قريبا بشعور مثل شعورك ، ولقد يغنيك من عزائه احساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم ، دون كـلام ولا ايمـاء •

اما الكلام الذي سمعه همام من صاحبه وهو في جواره فقد تركه يصغي اليه كأنه يتسمع الفاظا مغلقة من هاتف لا يراه •



مَن هي ؟

من هي سارة ؟

من هي الفتاة التي مشينا معها هذا الشوط ولا نعرفها ، والتي رأينا منها خطوطا ولم نر منها صورة ، والتي قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل ، وحروفا كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الاعجام (١) .

هي شيء يعرف ولا يعرف ..

اتتكلم بلسان الصوفية ؟ كلا . بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية ، فان سارة بنت من بنات الواقع الحي الملموس ... وبنات الواقع هن اللواتي نعرفهن جيدا ولا نعرفهن جيدا ، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منها شيء مجهول .

وليس بالنافع ان نصفها كما كان يراها همام في ايام صفوه وهيامه ، أو نصفها كما كان يراها في ايام نفوره واشمئزازه ، او نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم ، او كما كان يراها وهو على البعد مشوق ،

---

(١) اعجم الكتابة وضع نقطها وحركاتها .

ولكننا قد نصفها مزيجا من جميع هؤلاء فنخلص من وصفها الى صورة تشبه « سارة » التي خلقها الله ، وتشبه سارة التي يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات

هي جميلة : جميلة لامراء ، ليست اجمل من رأى همام فى حياتـه ولا اجمل من رأي في ايام فتنته وشغفه ، ولكنها جميلة جمالا لا يختلط بغيره في ملامح النساء . فلو عمدت الى ترتيب الف امراة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف ، ونحيت سارة عن الصف وحدها ... وان كنت لا تنكر ــ ولا تبالي ان تنكر ــ انها تأتي بعـد مئات .

لونها كلون الشهد المصفى يأخذ من محاسن الالـوان البيضـاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة .

وعيناها نجلاوان وطفاوان ، تخفيان الاسرار ولا تخفيان النزعـات: فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة .

وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام ، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة ، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر . وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما . فليس هو جيدا كأي جيد ولكنه الجيد الذي يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام .

يتخطاها من يراها على عجل ، ثم يعود مدركا انه قد تخطى شيئا لايفات ، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق اليها ، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجيا في سبيلك ... قوام بين هذا وذاك، او طراز آخر غير هذا وذاك .

لو تكفل بها مديرمعهد من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرداح بين الربعة والطويل ، قبل ان يبرزها في معرض الرقص والرشاقة •

ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى او عبد الحميد لما ضاره ان يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث ، قبل ان يزفها الى الشاهنشاه •

حزمة من اعصاب تسمى امرأة

وهيهات ان تسمى شيئا غير امراة •

استغرقها الانوثة فليس الا انوثة • ولعلها انثى ونصف انثى ، لانها اكثر من امراة واحدة في فضائل الجنس وعيوبه ، لا لانها اضعف من امراة واحدة •

ولقد يخيل الى الانسان في احايين ان يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق وان يسوي تكوينا بتكوين ، ويمزج عنصرا من الابدان بعنصر ، فامرأة يتممها رجل ، وآدمي يتممه حيوان ، وطلعة فتاة يتممها قوام وأبوة احرى ان تنتقل الى امومة ، واشباه ذلك من اخيلة المزج والتركيب •

اما هذه المخلوقة فلو انتقل عصب منها الى تكوين ليث غضنفر ليبقى هنالك عصب انثى بين جميع ما حوله من الواح وامشاج • ولو بقي الف سنة •

ولو انها تفرقت بين اجسام شتى لكانت فيها خميرة انوثة يوشك ان تطغي على جميع تلك الاجسام •

شغلتها جواذب الجسد قبل ان تفقه معناها وتسمع باسمها ومسماها• فلما كانت بنية دراجة في المدرسة ذهبت يوما الى كرسي الاعتراف تستغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشر التي حفظتها ، وتتوب من مقارفة الخطيئة التي دعوها في المدرسة « ترفا » على سبيل الكناية ! فذعر

الكاهن ولم يصدق ما يسمع . واستعادها مرة بعد مرة وهي آخذة في ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصوت ... ماذا ؟ فيما دون العاشرة وبين جدران مدرسة ليس فيها الا البنات تزل بنية لم يكعب ثدياها وتقترف ام الخطايا التي يقترفها النساء والرجال .

وما سكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بداله من لهجتها انها لاتفقه ما تقول ، وانها بمحاكاة المعترفات لانها احبت ان تصنع مثل ما يصنعن، وبحثت عما تعترف به فلم تجد غير هذه الخطيئة التي تجهلها . وقد نجت الخاطئة الصغيرة بعركة اذن وجيعة ، ثم ذهبت تسائل الزميلات ما هذا الذي ذعر منه الكاهن ذلك الذعر الشديد ؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات .

قال لها همام وهي تحكي له حكايتها : لقد حسب لك اعترافك قبل اوانه .. ولئن اعترفت بالامس وما اخطات فلانت اليوم تخطئين وما تعترفين .

وعاشت بعد ذلك تنظر الى خطايا الاديان نظرة المرأة الوثنية التي نشأت قبل ان ينشأ الانبياء . فهي ليست كالمتدينة التي خامرها الشك في دينها ، ولكنها كالمرأة التي لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين ، عن نزعة طبيعية فيها لا عن بحث ونقاش واطلاع ، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسة ان لم يأكلها جهرة ، وآباؤه مع ذلك هم الملومون لانهم منعوه ، وليس بالملوم لانه اختلس مالا بدّله من اختلاسه !

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف ، ولا كضجر المدمن يخدره العقار ، ولكنها كرعدة الحمى وصرعة الفرح الجموح يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الاعياء والبكاء .

لها فراسة نفاذة في كل ما بين الجنسين من علاقة ، لو حصلتها بالتعليم

والتلقين لاستغرقت اعمارا الى جانب عمرها في القراءة • ولكنها تفطن لما في نفس المراة لانها امرأة ، وتفطن لما في نفس الرجل لانها امرأة ، وبعينهـا ذكاء موصول بالفطرة وتعبير يتضح في ذهنها وان يتضح بعض الاحايين علـى لسانهـا •

والحق ان هذه الفتاة كانت في معرفتها بطبيعتها الانثوية اعجوبة ، وكان همام يسمع منها ماقل ان تفهمه امرأة وان شعرت به ، وقل ان تقوله وان فهمته ، وقل ان تحسن التعبير عنه وان ارادت ان تقوله • اذ المعهود في المرأة انها تشعر ولا تفهم شعورها ، أو أنها تفهمه ولا تعمد الى الصراحة فيه ، أو أنهاتعمدالى الصراحة فيه ولكن لا تحسن التعبير • أما هذه الفتاة فعلم الانوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الاطفال الذيـن يجمعـون ويضربون عشرات الارقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا اجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم !

في سهرة من سهرات الصور المتحركة شاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها « ادولف منجو » الممثل المشهور بتمثيل هذه الادوار ، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات •

وكان « منجو » بغيضا الى همام كما هو بغيض الى كثير من النظارة في دور الصور • فأراد همام أن يناوىء صاحبته وقال لها : اما والله ان النساء لسخيفات ان كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة وعندهن •

فاجابته متحدية : ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء ؟ الا تعجب المراة الا بفتى صبوح او بفتى متين الاركان ؟ هذا خطؤكم معشر الرجال • ان الفتيان الحسان الاشداء قد يفتنون المرأة ، وقد يخلبونهـا ، وقد يهيجون نفسها ولكنهم لا يقربونها اليهم ولا الى نفسها • ان احدهم لينظر اليها كأنه غريب يمشي في بلد غريب يخشى ان يتقدم او يتأخر ،

متهيبا يعديها بالتهيب فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل التقريب بينهما بعـد ذلـك .

أو ينظر اليها نظرة القانص الفاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة في سريرتها .

اما الرجل الخبير بالنساء من أمثال « أدولف منجو » فانه ينظر اليها بعد ان نظر الى مئات من قبلها فاذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء ، واذا بها تحس كل الاحساس انه يعرفها كما تعرف نفسهـا في مخدعها ، واذا هي قريبة منه لا تحتاج الى تقريب ، بل قريبة منه بوحي لا تدركه ولا تلتفت اليه ، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة في الخلوة بعد عشرة اعوام .

والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك عليهن ، فاذا احست المرأة بالفتور منه في الطلب والمغازلة خشيت ان تكون هي المعيبة المجفوة في نظره بالقياس الى من عرف من النساء ، ولم تتهمه فـي ذوقه بل اتهمت نفسها في جمالها و « جاذبيتها » كما هو دأب المرأة مـن سوء الظن بنفسها امام هؤلاء الرجال ، ونشأت عندها الرغبة في اجتذابه واستطلاع رايه ، واستسلمت له في سهولة وطواعية ، لعلمها ان الحيلة معه لا تخفى عليه . بعدما شهد الكثير من حيل النساء .

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة ؟ هل قرأته في كتاب مـن كتب الصور المتحركة ؟ يجوز ! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات .

وتمييزها لملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطـىء لانـه اشبـه بالغريزة التي لم تعرف غير الصواب لانها لم تعرف غير صواب واحد : كصواب النحلة في بناء الخلايا .

فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية لانها لا تشعر لهم بوجود ، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا في رجولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز ، والطغيان القابل للرحمة والحنان ، وقبس من اريحية الخيال ، ونفحة من حماسة الروح تحسبان في الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان في الميزان •

ولهذا تضل بعض الطريق الذي تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات في النهار ، لانها تلقى كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه ، وابغض من تبغض ــ وهي قارئة حصيفة ــ اولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية ، فهي تقول انها لو سئلت ان تكون رجلا ما قبلت ، وانها لو كانت تثور لثارت على الرجال لانهم يستمعون الى ذلك الهراء •

ومن لوازمها التي لا تفارقها انها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة الا كان عطفها في جانب الرجل وان غدر وان خان ويشق عليها منظر العاشق الموله المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده : ما من امرأة تستحق هذا العذاب !

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء ، ولكنها تكره التدليل السخي الفياض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة ، وانما تحب ان يقطر لها التدليل تقطيرا وان يشاب ابدا ببعض التوابل والافاويه •

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها :

أتحزن علي اذا مت ؟

فلم يدر كيف يجيبها ، ولكنه قال : هذا سؤال سابق لاوانه يا بنية ؟

قالت : ستبكي ولا شك لا أسألك في ذلك ••• ولكن كم عبرة يا ترى تميزني بها على من بكيتهم ؟

قال وهو لايظهر المزح ولا يحاول أن يكتمه : اراجع ما عندي من « رصيد » العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل !!

قالت : أنت لا تريح !

قال : ولكني أراك مرتاحة ••• أأنت تموتين ! ومن الذي يأذن لك أن تموتي !

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت ، ولو انه اسمعها غير ذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليه ، ولكنه اذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها ، وضمن الا تفسد عليه صفاء الساعة التي هي فيها •

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم او كل اسبوع او كل شهر مرة على ابعد تقدير ، ويرشحها على اثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التي « تؤهلها » لها تلك المعارف الكثيرة ••• الا انه استقر آخر الامر على أنها أصلح ما تكون مديرة للاضاءة في مسرح تمثيل •

لأنها تعلم مواقع الرؤية علما لاخطأ فيه ، وربما وقفت في المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شتى ، ثم لا تبالي ان تمازح صاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشها • فاذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة ، وأولعت بتعييره والتهكم عليه ، لانه لم يفهم لاول وهلة كما فهمت هي أن الاشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها !!

تعلمت وهامت بأوربا فأوربا عندها نبي معصوم : كل شيء فيها خير

من كل شيء في غيرها ، وهذه التي تغفل عن الاديان حتى يحيل اليك انهـا لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء ـ هذه الوثنية في عالم الدين تراها في عالم الازياء فتعلم لاول وهلة انها لا تغفل لحظة واحدة عن وحي باريس ومناسك الازياء في العالم الاوربي بأسره ، لانها تتحرج مـن وضع شريط في غير موضعه او لبس زي في غير موعده تحـرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده في جحيم عذابه .

وكان صاحبها همام على نقيضها يهزأ بالعرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو في المجامع العامة . لحق بها ليلة بدار الاوبرا وهو في ملابسه الصباحية فكادت حين رأته الى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتهـا به ومصاحبتها اياه ، وجعلت تنظر اليه نظـرات فيهـا مـن الاستغراب والاستهوال والاكبار لهذه الجرأة او لهذا التهور بمقدار ما فيها مـن الاسف والحنق والاستنكار ، ومالت اليه تقول : ماذا يظن هؤلاء الناس ؟ انهم لن يقولوا الا ان هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل ! قال متظاهرا بالاعتذار وقد علم ان المعابثة انفع اساليب الاعتذار معها في هذه الحالـة : لا عليك ايتها الفتاة المسكينة . في المرة التالية سأحمل في يدي كسوة السهرة لادفع عنك هذه المسبة ... الا انهما ـ حين خرجا من الدار ـ غلب عليها حب التحدي على الرغم من رغبتها في التستر والمداراة ، فخرجت وهي آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو او تغيظ المتفرجين !

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ ؟ ان شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور ، على شريطة ان يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه ، وان تقرأ في ديوان بيرون قصة دون جوان ، وان تقرأ في القصة أنباء خلاعته وعيثه بين مخادع الجواري الحسان في قصر السلطان ، اما شوبنهور فيجب

ان يكون كله على وتيرة مقاله في الحب والشهوة بين الذكــر والانثــى وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع !!

عاطفتها حية غير انها مشغولة بشاغل واحد ، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات ، لا لانها قاسية ولا لانها مغلقة جاسية ، ولكن لان مكان الشفقة مشغول مستغرق ، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة ان تنفذ اليه او تطغى عليه .

وكأنها الطيارة المحلقة وكأن نزواتها هي القوة الدافعة لها في الفضاء فاذا دفعتها فهي ناهيك من حركة وصعود وهبوط وان وقفت لحظة فهــي حجر ملقى على التراب،ولسان حالها في العواطف الانسانية ان تقول لرجلها: اشفق انت وتمرد على الظالم واعن بما تشاء ، وانا ورائك الى حيث تقودك قدماك .

وهي وثنية في مقاييس الاخلاق كما هي وثنية في التدين ، لا تؤمــن بالعصمة الانسانية في احد ولا في صفة ،وشديدة الايمان بضعف الانسان مع أضعف المغريات ... استطرد الحديث يوما الى جان دارك فقالت هازئة : كم رجلا يا ترى عرف انها عذراء ؟!

فقال لها همام : انها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات

فقالت : لقد شهد لها اضعاف هؤلاء بالمعجــزات ، فهــل تصدق معجزاتهــا ؟

وكان من دأبها ان تحب الغلبة في المناقشة على طريقة كل أنثى مــع تنوع الاسلوب والعبارة ، فاذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث ، او تقول حينا : اسكتني وما اقنعتني ! وحينا آخر : ناقشني يا أخي ناقشني ولكن بحق السماء والارض عليك لا تكتفني دع لــي

يا أخي حرية الكلام !! ... فهي تريد جوابا يروقها ويترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء .

فلما سألته : هل تصدق معجزاتها ؟ قال نعم ... اصدق انها صنعت المعجزات ، وجاءت بخوارق العادات ، ولكنها معجزات انسانية لها اسباب انسانية ، وان تضاربت فيها اقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين .

ثم قال : والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين وشاهد يقص ما يخيله له الايمان ... فشاهد العين مصدق ، وشاهد الايمـان لا يلزمنا تصديقه الا اذا جاريناه في ايمانه .

قالت : هذا قميص الكتاف يا أخي ! هذا قميص الكتاف !

* * *

ومن الصعب ان تفهم ما يرضيها اذا اتهمت امامك اخلاق الناس جميعا وراحت تقدح في دعاوي الصداقة والوفاء والفداء ، فليس يرضيها ان تكون على رأيها لانها تحب الرجل اريحياذا نخوة وحماسة وطموح الى عظائم الآمال والرغائب ، وتصديق بالوفاء والفداء .

وليس يرضيها ان تناقضها وتضطرها الى التسليم ، لان الاكراه مكروه على كل حال .

ولكنها اذا كانت تجاري طبيعة المرأة في حب الجدل والثرثرة والعناد فهي تجاري طبيعة المرأة ايضا في اعجابها بطموح الرجل وصلابته واحلامه، وربما استراحت الى الشعور بقوة عقله كما تستريح الى الشعور بكل بأس ، فيه فما كان يدري همام هل يناقضها او يجاريها فيما تقول ... وتلك حيرة يعالجها كل من عالج النساء .

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله اليها « وسطاء الخير » ليسفر في الصلح بينها وبينه .

قالت : فهل تدري ما صنع ؟ انه جاء يغازلني ينفخ في جمرة الغضب بيني وبين زوجي !

ثم قالت : ما أكذب الصداقة في هذه الدنيا !

قال همام وقد اراد ان يعابثها ويسليها : ان صاحبنا لمعذور . وان الاغراء بالخيانة لعظيم .. فليت جميع الاصدقاء لا يخونون الا باغراء كهذا الاغــراء .

ثم ضحك ، وضحكت ، وتماجنت في الضحك وراحت تقــول له : أراك ضننت على بقميص الكتاف اليوم ؟ لا . لا . انني اريد اليوم قميص الكتاف ... قل . قل أليست كل صداقة في هذه الدنيا لغرض ؟ هل يصادق الناس احدا الا لمال او جمال او سلطان او نحو ذلك من الذرائــع واللبانــات ؟

قال همام : ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية مــن المزايا فهل هو انسان يستحق صداقة انسان ؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الارعن قد ظفر بالامنية الممنوعة، وجعلت تقول :ها هو ذا قيمص الكتاف . ها أنت اذا اخيرا يا بني اواقبلت عليه تقبله وتناوشه ، وتبذل له ذخيرة من السرور ، كأنها فاكهة مترعــة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور .

وهي على ولعها بحديث الاكاذيب الشائعة في اخلاق الناس وعودتها اليه آونة بعد آونة لم تنع على الناس اكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم ، وانما تتحدث بها كما تتحدث بصفحة من الطعام الشهي لــم يتقنها الطاهي .. ولا حرج ان تمضي في حديث انتقادها بعد ازدرادها .

فهي لهذا يصح ان تسمى « وثنية » في تقويم مقاييس الاخلاق ولا

يصح ان تسمى متشائمة او ناقمة على الناس .

* * *

أما مذهبها في « الكرامة » فمذهب خليق ان يخيف من يحب لها الكرامة ، ويود ان يأوي من كرامتها الى حصن منيع على الطراق .

وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها انها « كسوة اجتماعية » لا يخلعها المرء في المجالس ولا يلبسها ممزقة او مرقعة او موصومة . فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء في هذا القياس !

اذا قيل امامها ان فلانة اباحت نفسها لخادمها قالت — وهي تزعم المناقشة حبا للمناقشة — ان المرأة قد تهفو هذه الهفوة وهي لا تنظر الى مثل ذلك الرجل الا كما تنظر الى حذاء . وليس كل رجل يصل الى فراش المرأة يسودها . بل هو قد يكون خادمها في ذلك الفراش .

واذا قيل لها ان فلانا ضرب حبيبته قالت : وهل ضربها الا لانه يحبها ؟ ان المرء ليضرب نفسه في الحائط اذا بلغ به الغيظ ذلك المبلغ ، لو كان ضرب النفس يشفي غلة المغيظ !

واذا قيل لها ان امرأة في التاريخ او في قيد الحياة تهالكت على اللذات قالت ان المرأة لا تتهالك على اللذات الا ان تفقد الرجل الذي يفوق اللذة في روعها فتحب الرجل لاجل اللذة بدلا من ان تحب اللذة لاجل الرجل الذي تهواه وتستكين اليه .

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة ، وانما تنفر من جميع الاشياء التي تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهي مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد .

ومثل هذه الكرامة لن تعصم صاحبها ان يقارف اخبث المنكرات ،

كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب •

ويحار طبيب الاخلاق كما يحار طبيب الابدان في ايواء هذا المزاج الى مأواه من الصحة والداء • أفمن كانت كذلك في نزغاتها وخلجاتها أتكون في رأي الطب امرأة سليمة مستقيمة علـى سواء الطبيعـة ؟ ان الاغراق يستلزم الزيغ والاختلال في التركيب •• ولكن أي اختلال عسى ان يكون في تركيب الجسم الذي يندمل جرحه بعد يوم ويقضي النهار والليل في صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدري ما الزكام ؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار •

أكبر الظن ان الفتاة على مابها من جموح وشطط كانت وشيكة ان تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها الى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية • ولكنها خابت في الزواج فشقيت ، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشقيقات ، فعاشت في عالم قد اقفر مـن جنس حواء الا ان تكون منافسة مريبة او عاذلة رقيبة ، ولم يبق فيـه الا رجـال !

وُجُـوه

ذو الوجهين منافق ، وذو الوجه الواحد ميت !

يعيب الانسان ان يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه ، وان يبدو للناس بوجهين يلعن احدهما الآخر ، ويعلم انهما ــ كليهما ــ ملعونان

ولا يعيبه ان يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماتـه ومعنى من معانيه ويعرض لنا من ذهنه وسليقته وقلبه في ساعة ماليس يعرضه في ساعة اخرى • لان كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكذب، وجوهر وليس بطلاء • وصفحة من كتاب لا تتم قراءته الا باستعراض جميـع الصفحـات •

ذو الوجهين في كل وجه من وجهيه كذب وطلاء •

وذو الوجوه المنوعة السمات ، المعددة الملامح ، المفرقة المعانـي ، راوية صادق الخبر يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه ، ولونا جديدا من تمامه ونقصه ، ونفسا جديدة في تعبير جديد •

والرجل الذي لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثال من تمثال هو جماد يختلس عنوان الحياة •

والوجه الذي يصوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابع واحد لا يتبدل هو جدار في هيئة انسان ، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والالوان .

لنابليون بونابرت مئات من الصور الشمسية والزيتية ، ولا نذكر الا صورة واحدة لنا حين نبصرها لاول وهلة : هذا وجه ايطالي لامراء .. ! فلولا اننا نعلم ان نابليون ايطالي من شعبة ايطالية لقلنا ان الصورة كاذبة، او ان فراستنا هي التي كذبتنا ما رأيناه ، ولكننا نعلم انه ايطالي من شعبة ايطالية فالصورةاذن اصدق من جميع الصورة التي خفيت فيها ملامحه الايطالية ولم تبرز لنا البروز .

وجمال الدين الافغاني يختلف المترجمون فيه هل هو من الفرس او من الافغان ؟ ولكن صورة من صوره التي ترتسم فيها عيناه القلقتان الوامضتان وصدغاه الناتئان وشفتاه العصبيتان تفض الجدال وتقول فيه اصدق مقال ان هذا الوجه لافغاني ولو ولد في البلاد الفارسية . وانه لافغاني ولو نماه اليهم قوم من الفرس ، ونفاه عنهم قوم من الافغان .

وليس منا الا من يعرف صاخبا يحاول ان يخفي بعض مثالبه او بعض سيئاته ثم يلتقطه المصور التقاطا فاذا هو حاسر الطبيعة بغير نقاب ، على كره منه وعلى كره من المصور . ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشفت من امره ، لانه يفهم افشاء الكلام ولا يفهم افشاء السمات والقسمات .

وليس من اللازم اللازب ان يطول الزمن بين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد ، فأني لاذكر اني رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد في السنة الاولى من عمره أخذت في ساعة واحدة في مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده : ترى احداها فلا تملك ان تقول : ما اشبه هذا الطفل بأبيه ، وترى

الثانية فلا تملك ان تقول : ما اشبه هذا الطفل بأمه ، وترى الثالثة فتستطيع ان تقول انه ليشبهأمه كما تستطيع ان تقول انه ليشبه اباه •

ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها فلا يندر ان يلتفت الانسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه امام المرآة فيلوح له شبه من عمومته او شبه من خؤلته لم يكن قبل ذلك يلمحه في صفحة وجهه وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة اخرى الا في مثل تلك اللفتة الخاطفة

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الابناء الذكور يجلس كل منهم الى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما اقل خفاء ، ولا يحتاج الناظر الى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره انهما ابن وأبوه • ثم يجتمع الاخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه الا بفراسة المتأمل ، لتقارب الاصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات •

ومما لا ريب فيه ان سمات الاخلاق والافهام شيء يستكن في النفس قبل ان يبدو على اسارير الوجوه ، وانها شيء لا يزول من النفس وان زال اثره الظاهر في بعض الاحيان ، وانه على قدر معاني النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه ، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الانس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد ، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط الى اللقاء•

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتي لا يطالعنك بمنظر واحد في محضرين متواليين : تراها مرة فأنت مع طفلة لا هية تفتح عينيها البريئتين في دهشة الطفولة وسذاجة الفطرة بغير كلفة ولا رياء ، وتراها بعد حين — وقد تراها في يومها — فانت مع عجوز ماكرة افنت حياتها في مراس كيد النساء ودهاء الرجال • وتضحك ضحكة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشهوات ، وضحكة اخرى — وقد تكون على اثر الاولى —

فذاك عقل يضحك ولب يسخر ، كما تسخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكـــين .

هي تارة ام رؤم تفيض بحنان الامهات حتى ليوشك ان تسع به اطفال العالمين ، وحسبك ان ترسمها هكذا ولا تضع في احضانها طفلا يرضع ولا الى جانبها طفلا يدرج ، لتستحق الصورة عنوان الامومة .

وهي تارة أخرى شريدة بوهيمية لم تستقر قط في دار ولا وطن ، وما استقــرت قط مــع عشيــق .

لها صورة الى جانب سرير لو نحيت عنها السرير جانبا لمثلت لــك راهبة خاشعة تهم بالصلاة ، او ضحية من ضحايا الآلهة تساق الى محراب القــربــان .

ولها صورة على سفح الهرم لو اخفيت منها الهرم لخلتها حوريــة مخمورة في ارض يونان القديمة تهم بالرقص في كروم باخوس .

وكان همام يراقب هذه الشخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشفق تارة اخرى ، ويعزو تقلبها واطرادها الى الفتوة الحية التــي لم تحبس في محابس الافكار والعادات والتقاليد ، فهي ابدا في ايــدي العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب في كل ساعة .

وخطر له ان ينشىء حولها رواية مسرحية هي جميع ابطالها وهــي البطل الوحيد فيها ، تدور محاوراتها على المثال الآتي :

سارة : اني لا ارضى ان اصاحبك في الطريق وانت في هذه الثيــاب الفاضحــة .

سارة : وهل تحسبين انني اسر بمصاحبتك وانت بهــذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزي الذي يشبه زي الحداد .

سارة : على رسلكما ايتها الصديقتان ، لا تتخاصما ولا تشرعا فــي

تمزيق ما عليكما من ثياب • انها تستركما على كل حال ، وانتما ضيفتاي غدا •••فهل تحضران الى وليمتي وقد شحذت كل منكما أظافرها لصاحبتها؟ لا عليكما من المصاحبة في الطريق ••• احضرا من طريقين مختلفين ولتكن كل منكما في الثياب التي تروقها ، فأنتما تعلمان اني احبكما ، ولا انكر منك يا سارة شفوف الخلاعة ، ولا منك يا سارة مسوح الرهبانية !

سارة : وهل عندك وليمة غدا ؟ من دعوت اليها غيرنا من السيدات ؟

سارة : دعــوت سارة و ••

سارة : سارة ! اخشى ان تكون تلك الفتاة التي لا تتحدث ابدا الا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها •

سارة : لا بل هي سارة التي لا تتحدث ابدا الا عن وليدها •

سارة : ها اناذا قد حضرت في غير الموعد الملائم على ما يظهر ••• وآسف لاني قطعت عليكن لذة الاغتياب فالغيبة لذيذة • ولا سيما غيبــة الصديقــات •

سارة : لم نقل عنك شيئا • وانما اردنا تعريفك فقلنا انها هي سارة التي تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه •

سارة : وأي عجب في ذلك • الا تحب الام وليدها ؟ وهل للمرأة فخر اشرف واشهى من الامومة •

سارة : اخطأت يا صديقتي • ان فخر المرأة جمالها •

سارة : بل فخر المرأة ذكاؤهــا •

سارة : بل فخر المرأة من تحبه ويحبها •• ويحي ويحي ! •••

لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين اربع

سارة : وان شئتن فلتكن بين خمس •• علام تختلفن ؟ الا تسمحن لي بنصيب في هذا الخلاف •

سارة أهلا بك سارة ... ! أخشى ان تكون لك فرصة باقية لخلاف.
لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة ان فخر المرأة امومتها وقائلة ان فخر المرأة جمالها وقائلة بل فخرها ذكاؤها ، وقائلة لا هذا ولا ذاك ولا ذلك . بل فخرها حبها وغرامها .. فماذا انتقائلة بعد ما قيل . لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة .

سارة : كلا يا صاحبتي ! لا تتعجلي بالرثاء لحالي . فقد نسيتن فخرا للمراة لا ينقطع عن الامومة ولا الذكاء ولا الجمال ولا الغرام . ولا ادري كيف نسيتنه هذا النسيان ؟ فخر المرأة عذابها يا اخوات .

سارة : صدقت يا صديقة !

سارة : ماذا تقولين ؟ صدقت ؟ يا للعار . هذا كلام العجائز هذاحديث خرافة . هذا مذهب عتيق اقدم من حواء والحية . انما خلقنا للسرور نأخذه ونعطيه . فمن نذر المرأة للعذاب لا اصاب في الدنيا غير العذاب !

سارة : ليسقط التمرد !

سارة : ليحى التمرد .

***

ثم يتقاربن ويتلاحمن ويتسربن كلهن في شخص واحد ، يبقى على المسرح في ثياب الشرطة ! ويصيح : أين المشاجرة وأين المتشاجرات ..

***

وقد تلا همام على سارة هذا الفصيل الصغير فاستملحت الفكرة وصفقت لها طويلا .

قال همام : كفاية . لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية .

***

ولم تكن هي في باديء الامر تفطن لهذا الذي يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها : انما كانت تعرف كيف تبدي بضاضتها في الثياب البيضاء ، وكيف تخيل لك النحافة في الثياب الدكناء او السوداء، وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة ، وكيف تصففها بما يكشف منها جانب الذكاء ويزين القسمات باشراف جبينها الوضاء ، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت الى محاسنها وتسمع رأي الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرآها . لكنها لم تكن تلتفت الى ما وراء ذلك من تقلب المعاني وتعدد الشخوص .

فانهما لفي يوم رائق صاف جميل الاصيل وهمام يتأمل وجهها الذي تبدل الاشعة والظلال من معانيه كل لحظة ، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة ، اذا به يهتف فجأة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها .

كم لك من وجوه يا سارة ؟

فانتفضت في ذراعه ، وحسبت انها مقدمة لاتهام وملاحاة ، وهما يستمرآن نعيم ذلك اليوم الرائق الصافي الجميل ، وقالت . ماذا تعني ؟

قال : هدئي من روعك . انما ثناء اردت لا ملامة ، وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة او عن شخص من شخوص الروايات ، وهي تصغي اليه ، ثم مستريحة ، ثم مبتسمة ثم طروبا متهللة ، وهو يرى فيما يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه ، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية . .ثم نكتة من نكاتها التي لا تخذلها في أمثال هذه المواقف ، القتها اليه وهي تتناءى عنه مرحة ضاحكة :

احمد ربك . عندك من سارة المظلومة حريم كامل ، فلا تشكر نفسك كثيرا على الوفاء !

كيف عرفها

رتيب الحوادث ان تنتهي ثم نكر راجعين للسؤال عن بدايتها وسبيل التواريخ ان تنطوي السير وتنصرم الدول ثم تتقصى مناشئها وأسباب ظهـورهـا .

فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام ، بعد ان عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقـاء الاخـير .

لم يقصد همام ان يلتقي بسارة ولم تقصد سارة ان تلتقي بهمام وانما جاء اللقاء كما تجيء معظم الحوادث الكبرى في معظم التواريخ والسير : من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب ، مصادفة يسبقها عمد ، وعرضا لا يمهد له بتفكير .

خرج همام يتمشى في الخلاء ضحوة من ضحوات الخريف التـي تبتهج فيها الشمس في هدوء ، ويرقص فيها الهواء في حنين ، ويرق فيهـا الجـو في تشوق وارتقاب ، وتطرح فيها النفس اعبـاءهـا كما تطرح القافلة احمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل : ريثما تنهض بالعبء من جديد .

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور ؟

لا تقول الشمس ، ولا يجيب الهواء ، ولا يشف عنه الجو ، ولا تحفل النفس ما يكون ، حتى يكون ••• ان كان !

ويعود همام من رحلته وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته ، وأصبح جزءا مـــن الشمس والهواء والجو ، ولـــم يعد جزءا مـــن عالم الانسان •

وألفى نفسه وهو عائد الى منزله على مقربة مـــن مسكن صاحبه الاستاذ زاهر ، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون ، ويسخطون فيكونون أدنى الـــى التسلية والطرب ، لطرافة ما يرتجله في هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد •

وكان يومئذ يسكن في بيت مـــن بيوت الحجرات المفروشة تديره خائطة فرنسية ليكن اسمها « ماريانا » ••• فدلف همام الى المنزل يزور صاحبه ويقضي معه فترة يقفزان فيها بـــين معارض الحديث التي لا وصلة بينهما ، ويضحكان ضحكا كثيرا ، ان لـــم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين •

ووجد « ماريانا » في فنـــاء الدار تطعم الديكة الزومية التي عندها صفحة من « المكرونة » البائتة ، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها ، لانها تصلح للعشرين كما تصلح للخامسة والعشرين ، وتسمى آنسة كما تسمى سيدة ، وهي مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه •

قال همام : أسعد الله الصباح • أين زاهر يا مدام ؟

فردت تحيته بمثلها ، وقالت : أو لا نراك الا زائرا لزاهر ؟ ؟ انه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل •

والتفت همام الى صفحة المكرونة قائلا : أرى أن الديكة اليوم ايطالية وليست رومية !

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة ، وانما أجابت الفتاة قائلة : ان كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الاجناس : مصرية ان أكلت الفول المدمس ، وانجليزية ان أكلت البطاطس ، وهندية ان صبرت على الصيام الطويل .

فنظرت اليها « ماريانا » نظرة العتب المصطنع ، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها في الحديث في وقت واحد ، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التي أحس لتوها أنها وافقت هواه ، وأنه كان يسوق الحديث اليها ان أبطأ المساق .

قال همام : ان الآنسة تعرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها في الوطنية ، ولكني لا أذكر أنني رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن .

ماذا يقول ؟ أيقول لا أذكر أنني رأيتك ؟ أكان من الجائز اذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها ؟

أحس همام أيضا أن الكلمة لم توافق هواها ، وسمعها تجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها :

ولماذا تدعوني يا آنسة ! أتستصغرني ؟ انني ربة بيت ، وأم !

* * *

يا للمرأة ! أتريد أن يفهم أنها غضبت لانه دعاها يا آنسة ؟ لا والله ! لقد كان بريق الرضى بهذه التسمية يومض في عينيها ... انما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه ، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب ، وتوارت وراء حجاب المجاملات والالقاب .

فأحب أن يغيظها قليلا وعاد يقول : ولكن السيدات يـا آنسة .. يلبسن في أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج . فأين هذه العلامة ؟

قالت : لذلك شرح يطول .

قال : عسى أن أسمعه في وقت قريب .

ثـم اقتضب الحديث والتفت الى شيخ متهدم يعبر الفناء ، فسأل الخائطة : أهذا ضيف جديد عندك يا مدام ؟

فزمت شفتيها لا يدري أهـي مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله ، وقالت : ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام . ألا تراه يتعثر بقدميه ؟ وفي أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه « ماريانا » عن الرجل وعاداته وأطواره ، وثروته التي تربى علي الالوف ، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به في شيخوخته الكئيبة .

قال همام : وما حاجته الي البحث عن وارث ؟ ان الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون « عند اللزوم » .

قالت : ألا يحتاج الى من يعوله ويواسيه ويحف بـه وهو يودع دنيـاه ؟

قال همام : ان كنت يا ماريانا حريصة على خروجه مـن حجراتك فانصحي له بكتابة اعلان في الصحف السيارة ، يقول فيه أنه يملك كذا من الالوف ويحتاج الى كذا من الاخوان وأولاد الاعمام وأولاد الاخوال ، وانظري كيف يضيق بيتك عن الطالبين والطالبات ممن « آنسوا في نفوسهم الوفاء بالشروط » .

فنسيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعت ضاحكة ، وما زالت حتى أجبرت هماما ـ وهو في غنى عـن الاجبار ـ أن يحول الحديث اليها . فسألها قائلا :

وأنت يا سيدة . نعم أنت يا سيدة في هذه المرة : لاية قرابة ترشحين نفسك اذا أعلن الرجل اعلانه ؟

فهزت رأسها تفكر . ثم قالت : أوفرها نصيبا في الميراث ؟

قال : لا تكونين اذن الا زوجة ؟

قالت ما معناه : فأل الله ولا فألك . أي غرام غرامك هذا بذكر الزواج والزوجات والازواج ؟ .. ثم رفعت رأسها متأففة كأنها تطوي حديثا لا تحب أن يجري لها على لسان ، وهي في الواقع تود لو أفرغت كل ما في جعبتها من ذلك الحديث ، أول ما تسعف المناسبة وتبدر من همام بادرة اغـراء .

قال همام : لا تؤاخذيني ان ذكرت الزواج مرة أو مرتين ، فانني لم أتزوج قط ولا خبرة لي بهذا الجانب من مزعجات الدنيا ..

قالت : أصحيح ؟ .. لقد أراحك الله . فبأي جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير ؟

فأسرع همام قائلا : لذلك شرح يطول !

قالت : يا لك من منتقم .. على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان ، فانني لا أكلفك عناء هذا الشرح ولا أستطلع دخائل شأنك .. لست فضولية بحمد الله .

قال : واذا كنت أنا فضوليا ؟

قالت : اذن يختلف الامر .

قال : كيف يختلف ؟

قالت : يلوح لي أنك كما وصفت نفسك : أنت فضولي ولا فخر .

قال : ليس مع كل الناس .

قالت : تحيات وغزل .. ! وعما قريب : عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك ، الى آخر هذا الموال المحفوظ .

قال : ولماذا عما قريب ! .. الآن !

قالت : أنت عجول ، وأنت جريء أيضا .

قال : ان وعدتني أن أجني للصبر ثمرة ، فأنا أصبر من أيوب ، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئا ، وأنصرف الآن !

قالت : وصاحبك الذي تسأل عنه ؟

قال : ها ... يلوح لي أنني أعجبتك ! وأنك تسبقينني !

قالت : لولا أنـك تمزح لقلت أنـك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال . لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهـواه .

قال : أو يحسب أنه مجنون بهواها !

قالت : طيب والله لقد قطعنا شوطا بعيدا جـدا في نصف ساعة ولا أدري ما خطب « ماريانا » سامحها الله ؟ أين ذهبت وتركتنا ؟ ألعلك على اتفاق معها أن تهيىء هذا اللقاء ؟ .. ما في ذلك من عجب ، فهكذا تصنع الخائنات فيما يقال .

وسمعت « ماريانا » اسمها فعادت تهرول وتتساءل : ماذا تقولين عني يا سارة ؟

قال همام : انها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج !

قالت ماريانا : أنا أعلم على الاقل أن الدجاج لا تحتاج الى من يدبر لها الخلوة مع الديكة !

قالت الفتاة : قاتلك الله يا عجوز السوء . لماذا تتصلين من التهمة ؟ أما كان الاولى أن تمهلي لمحة لعلي كنت أنوي أن أشكوك على ما صنعت ؟

فطاش الفرح بهمام ، وأوشك قلبه أن يفلت مـن نياطه ، وانتشى نشوة خمسين كأسا في رشفة واحدة ، وقال وهو يهجم على « ماريانا » : بل دعي لي أنا أن أشكرها . انني أقبل وجنتيها ، .. انني ألثم فاها .. وصنع ما يقوله قبل أن تفيق « ماريانا » من دهشتها وقهقهتها . ومال الى الفتاة قبل أن تدري مـا هو صانع قائلا وأقبلك أنت أيضا اكراما ... لماريانا . وقبلها !

ثم جلس مأخوذا بما حدث يتوقع ماذا تكون الكلمة الاولى التي تلفظها الفتاة : أتشتم ؟ أتصطنع الغضب ؟ أتنطلق من المنزل ؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل في حينها دون ما يتبعه من ثورة أو مسامحة ، فاستطال الامد وما انقضت غير ثوان في توقع مـا يكون . وزاده فرحا علي فرح أن شيئا مما توقعه لم يحدث ، وان كل ما حدث أن الفتاة بهتت وراحت تقول شيئا لا بد أن يقال ، فقالت في صوت خافت :

لقد آذاني شاربك الطويل !

* * *

وتم التعارف بالاسماء .

واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغي اليها السامع، لحظة يسيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلا بغير منفذ وبغير دلالة . فان الفتاة لبثت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكر في غير ما تتكلم . ثم خرجت ساهمة بغير استئذان الا حين قاربت الباب ، فقد انثنت تحيي هماما تحية مـن يؤدي « واجب اللياقة » لا تحية من يجامل في وداع .

قال همام : ما معنى هذا ؟

قالت « ماريانا » : لا عليك منها ، انها ستعود يوما ما لا محالة .

قال : لست عن هذا أسأل ؟ فهل هي غاضبة ؟

قالت : مم تغضب ؟ أمن القبلة ؟ فلم لم أغضب أنا ! ؟

قال : خيبة الله عليك يا عزيزتي ماريانا ... دعينا من غضبك أنت ورضاك ، فانها هي القبلة الاولى والاخيرة بغير مراء ! ولئن رضيت عنها فما أنا براض ... ولكن الذي يعنيني ألا تكون قبلتها هي القبلة الاولى والاخيرة . فما رأيك ؟

قالت : ابغ لك مستشارا غيري . انني أعرف كيف أوفق بين الكسوة وصاحبتها . ولا معرفة لي بالتوفيق بين رجل وامرأة !

فلم يشأ همام أن يطيل الكلام ، ولم ينتظر صاحبه الذي لم يعد ولم يكن يبالي في تلك الساعة آن يعود . وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها . كأنما كان يستطيع الفصل بين الامرين ! .. وعادت القبلة الى شفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الاول . حتى لقد أوشك أن يضم شفتيه ليلامس ذلك الثغر الذي لاح له أنه ينضغط وينضغط من لينه وطراوته الى غير نهاية ، وسرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذي هدأت سورته وبقيت ذكراه ، فازداد غما على غم . ولعن ذلك الشيطان الكامن في أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها ، في حيثما احتاجت الى التهوين والنسيان .

وذهب الى المكتب فتلقاه الخادم قائلا : ان سيدة سألت عنك بالتليفون .

فلم يعره كبير التفات .

وعاد الخادم بعد فترة يقول : ان سيدة على التليفون تسأل عنك ، وأظنها السيدة الاولى .

فنهض همام الى التليفون وآخر مـا في ذهنه أن المتكلمة هي فتاة ذلك الصباح ، وقال بغير اكتراث : من المتكلم ؟

قال صوت كصوت الفتاة بعد التحريف المعهود في أداة التليفون : ألا تعرفني ؟

قال : عرفتك الآن . أنت سارة ولا ريب !

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هي أنـه حذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الاصدقاء الاقدمون !

قالت : أو كنت تنتظر هذه المحادثة ؟

قال : لا أزعم انني كنت أنتظرها ، ولكني أحسب أنني كنت أتمناها !

قالت : اذن هل تحب أن أراك الليلة في دار الصور المتحركة ..

قال : بل أحب أن نلتقي على انفراد . فذلك أروح وأسلم .

قالت : انما عنيت أن تشهد الرواية لانها تشبه قصتي تمام المشابهة . ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك .

قال : لان أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات .

قالت : فأين اذن ؟

قال : ما رأيك في حديقة الاهرام ؟ انها مكان قلما يغشاه أحد في هذه الآونة ، وسنلتقي في زاوية من الطريق ونستقل سيارة مـن هناك الـى الحديقة ، وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين .

* * *

كان أول ما فاهت به وهي تجلس الى جانبه في السيارة أن قالت

لا بد انك حسبتني مجنونة وقلت في خلدك : ما هذه الرعناء التي تقبل التقبيل ، ثم تخرج مغضبة ، ثم تتكلم بالتليفون ، ثـم تحضر الى الموعد طائعة ، فماذا حسبتني بربك ؟ قل لي ولا تكذب !

قال : على كل حال لست بآسف لجنونك .

قالت وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجي بهذه المفاجأة قبل أن ترميني بالجنون ؟

قال : مستفهما : أللامر علاقة بماريانا ؟

قالت : هـــو ذاك . فلو أنني أطلت المكث لباخ الغضب بعد ذلك . ولو أننا تواعدنا أمامها لوقعت في براثنها بلا رحمة ، فاما أن أطيعها في كل ما يعن لها ، واما التهديد والانذار .

فربت على خدها كأنها طفلة أجادت درسها . وقال : انك لحصيفة يا هذه التي تتطلع مني الى تهمة الجنون . ولكنها حصافة مخيفة .

ثم حكى لها ما قالته مريانا بعد انصرافها ، وكيف أنها تغضب حين قبلهـــا ! فكيف تغضب الفتيات الماجنات ؟ ... فأخـــذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع . وثابت الى الحصافة فأوصته أن يزور «مريانا» في اليوم التالي ويثابر على سؤالها بضعة أيام . ثم ينسى المسألة كأنه ألقى بها في ذمة المصادفات .

وانطوت المسافة الى حديقة الاهرام بمثل لمح البصر ، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة ، وأنه حرام عليه أن يشترك بها في سباق السيارات .

وخف كل شيء في الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عـــن واجبه المرسوم ، وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان

خاليا من كل انسان . فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الاطفال ، وانبعثا معا في خلق جديد .

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة في طعام وشراب . فصدفت عن كل ما اقترحه عليها الا صفحة شواء لا تشبع : فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها ، وقال لها ان بعض الاجسام اذا خف لم تكن خفته على استواء واحد . فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام ، ولا ينال أصحابه الا الجوع والندم !

فنظرت اليه بعيني طفلة تخاف ، وسألته مستوثقة : أحق ما تقول ؟

قال : حق كل الحق . وسأريك اذا زرتني في المنزل صور التماثيل التي يعدونها في العالم بأسره نماذج لجمال الانوثة ، فان تماثيل الزهرة التي صنعها اليونان — وهم أساتذة الذوق السليم — ليست على نحافة ولا ودقة في الخصور والأطراف ، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق . وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال في بنات حواء . فأين نرى البضاضة والسموق اذ أصبح النساء وكلهن نحيفات هزيلات ؟ وكيف تتعدد القوالب اذا كانت المرأة لا تخلق لنا الا في قالب واحد ؟

وسرها ما سمعت فسألته عفوا :

أيعجبك اذن هندام جسمي على ما هو عليه ؟

قال متماجنا : ومن أين لي أن أحكم ؟

ثم أحجم عن التمادي في هذه النغمة ، وأيقن أنهما في هذه الخفة التي يشعران بها ليستطيعان أن يتحدثا عن الموت كما يتحدثان عن الرقص واللهو والمجانة ، وأحب أن يتحول الحديث الى قصة الزواج التي وعدته أن

تقصها عليه ، والتي يتوقف على فهمه اياها أن يفهم مدى العلاقة التـــي ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة في تلك الساعة أمامه . فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باستطراده :

ان كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كـــل هذا العناء ؟ أهناك رجل آخر ؟

وصح ما قدره همام ، فكان جوابها على نغمة الخفة التي شملت في تلك الساعة كل شيء ، وقالت : أو تحسب أن المرأة لا تتزين الا لزوج أو حبيب ؟ انها لتتزين لنفسها . وانها لتتزين للرجل الذي في عالم الخيال ، ولو لم يكن له في عالم الواقع وجود .

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهي تسأله : أأرضي زوجا ؟ ألا ليت هذا كل ما يعنيني ! ... اذن لاكلت قنطارا من الارز والزبدة كل يـــوم !

واجتازت النقلة بين ارضاء الزوج وقصة الزواج في جملة أو جملتين. ثم انقضى نصف ساعة علم فيه همام صفوة ما أرادت أن يعلم . فلو سأله سائل : أصدقها في جميع قولها ؟ أعذرها في جميع فعلها ؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالايجاب .

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الامومة . ونمت وهي لا تعرف الا جماح الحيوية العارمة لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف ، مع ذلك الذكاء الوقاد الذي لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات ، وأنها لو سيقت الى زوج « يملأ عينها » ويحقق معنى الرجولة في رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القنوع. ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا ،

والتمست لقلبها وحده جميع الاعذار .

قالت وقد سردت له قصتها :

أصغرت الآن في نظرك ؟

قال : أمني تطلبين الحكم ؟ أنا حاكم مغرض فـلا تنفعك الشهادة مني ، غير أني أقول ان الذين ينصفونك في الدنيا قليلون .

قالت : لا حاجة بي الى انصاف الدنيا . فلتحفظه لمن يطلبونه .



ولقد رجعا من الحديقة الى الجيزة مشيا على الاقدام ، لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق . وجاء الترام فركبت في مقصورة النساء وركب مع الرجال .

وكان الموعد الثاني في بيت همام .



أبّام

أجل هي فتاتي لا مراء فيها .

ولئن خشيت حبا فانما هذه الفتاة التي يحق لـي أن أخشى حبهـا وأخشاها .

سنحت هذه الخاطرة في حدس همام مع سنوح سارة في أول الطريق طفرة واحدة .

وكان همام ممن يقيسون ارتقاء المرأة بسلوكها في مسألة المواعيد . فأبغض النساء اليـه المرأة التي تحسب سرور الرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالابطاء في الحضور الى الموعد ، ولو كان في وسعها أن تسبقه اليه ... وعندها أنه ما دام راغبا في لقائها فلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويسعد بهذه المتعة صافية ، وعليه أن يبذل ثمنها نكدا لا ضرورة له وغصة لا حاجة اليها ، وهو صاغر راغم يحرق الارم ولا يعرف له حيلة غير الانابة والتسليم . والا فماذا هو صانع ؟

وجواب « ماذا هو صانع ؟ » هذه يختلف باختلاف الرجال واختلاف أنواع الهوى . أما جوابها عند همام فهو الانتظار خمس عشرة دقيقة على

الاكثر ريثما ينقضي أقصى المدى المفروض لاختلاف الساعات في التقديم والتقدير • ثم ينصرف ولا يسأل عن العاقبة ، الا اذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول •

فلما رأى سارة ــ وهو يراقب الطريق من وراء النافذة ــ قد أقبلت في أول الطريق قبل الموعد بدقيقتين أو ثلاث ، ولاحظ للمرة الثانية أنهـا تتحرى الدقة في رعاية المواعيد ، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينها • وأوجس في حينها أن تنشب هذه العلاقة جذورها في فؤاده فيتبعها ما لا بد أن يتبعها من لواعج ونكبات وفواجع ، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدا • لان الفتاة التي تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع ، وأن العاطفة أنفس من أن تشاب بالتنكيد والتكدير لغير داع ، لهي صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور ، ولا يقتصر ذكاؤها على النظر الى عقربي الساعة لادراك الميعاد !

وفي الحق أن سارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة في أول زياراتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد •

فلو كانت تعرف ما يروقه ويستهويه من النساء معرفة تفصيل وتدقيق لحسب أنها تجوز امتحانا عسيرا وتتعمد أن تخرج منه بالتزكية التي ليس بعدها تزكية ، والشهادة التي ليس فوقها شهادة •

هــو قليل المرح فيروقه من المرأة أن تكون مرحة بغير تكلف ولا مبالغة ، ويسمى المرح الذي يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا « موقعا » تشبيها لــه بالغناء الذي ينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسن به الوقوف • ويسكن حينما يطيب منه السكون : يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز ، ولكن على نغمة تفصل اللحن من

اللحن أو على قافية تختم البيت بعـــد البيت ، فهو الوقوف الذي يريح ويشوق ويزيد لذة الايقاع وطرافة السماع •

وهو يحب من المرأة الزينة التي تغري مـــن يبصرها اغراء لا يخفى ، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما استطاع أحـــد تكذيبها ببرهان •

وهو يحب المرأة التي تدرك الفكاهة ويكره التي تتخذ من فكاهتها صناعة أو معرضا مفتوحا في كـــل ساعة ، وأقرب دليل عنده علـــى اتفاق المزاجين هو دليل « نيتشه » الذي يقول ان الضحك من نكتة واحدة هو العنوان الواضح على تقارب الضاحكين في المزاج والتفكير ، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما في تمييز النكات •

وهو يحب ربـــة البيت التي تكون أول خادمة فيـــه لانها سيدته الوحيدة ، ويحتقر المرأة التي تأنف من تلويث يديها في مطبخها كما يحتقر الرجل الذي يأنف من تلويث يديه في حقله أو حديقة داره •

وهو يحب المرأة التي تستطيع أن تكون « انسانا » في بعض الاوقات بمعزل عن الانوثة والذكورة ، فلا تكون الانوثة الحيوانية هي كل وظيفتها في الحياة •

ولقد تجلى له كل أولئك من سارة في أقل من ساعة ، يوم جاءته في أول زيارة •

جاءته في زينة تلفت العين الى كل مزية في جسدها ، ولا تلفت النظر الى عيب في نفسها •

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت الى أثاث الحجرة تضعه في مواضعه التي تهواها ، والى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذي

تود أن تراه ، والى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لاول وهلة كيف طهيت كـل صفحة ، وكيف أعدت كـل طبخة وكيف لوحظت النظافة في التحضير والغسل والتجفيف •

وحان وقت المائدة فقدم لها « الديك » قائلا : هذا اعتراف بفضل الديك في تعارفنا ، وتمهيد محادثتنا الاولى •

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهاتفة : لا أحب يا صاحبي أن تعرف لي فضلا على هذه الطريقة !

فطرب للنكتة ووجم في وقت واحد ، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحترس بعض الاحتراس ، ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه الا أن ينقذ نفسه وهو يردد في شيء مـن التلعثم : ان كنت لا تأبين أن أمزجك بدمي ولحمي وأن أجعلك جزءا مني فالطريقة لا تهم ، وأنت أكلة شهية تطيب لي بغير حاجة الى السكاكين والقدور !

وكان حديثها على المائدة ـ وقد استغرقت ساعتين ـ على هـذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد •

لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين • فقالت : كان من حقنا أن نتزوج ، فنحن زوجان طبيعيان : أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره ، فلا يشجر بيننا نزاع •

قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول : هذا مذهب شوبنهور منقولا الى المطبخ !

وأحس أنه أقحم شوبنهور في غير مقحم : أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء ؟

وأنه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع الى موضوع غير هذا الموضوع

الذي أثاره ، وانه ليريد أن يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور اذا هي تلاحقه قائلة :

نعم ، القصير يطلب الطويلة والابيض يطلب السمراء ، والبدين يطلب النحيفة ، ومن يأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح ... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف .

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها الى « محل الشاهد » كما يقولون أضعاف ما راعته نكاتها ، ولمحت هي دهشته فاستطردت تقول : على رسلك ! لا تخف ولا تجعل ! فلست بحمد الله فيلسوفة ، وما قرأت شوبنهور الا لان « أحدا » أرادني على قراءته ، ولان تفهيمه اياي كان ذريعة اللقاء بيننا ، وما كان بالجائز أن يحضر الي ليفهمني رواية أو مقالة ممتعة ... فلم يعد لنا بد من الفلسفة وأمرنا الى الله ! ! فأغرب همام في الضحك ، لانه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به ، وسخرت فلسفته لغرامها .

وأثنى همام على صراحة سارة وقلة دعواها ، واطمأن الى سياق الفلاسفة والشعراء فقال : الآن أمنت مرة أخرى أن صديقي «هيني » خبير بالنساء في جده ومزاجه ...

قالت : ومن صديقك هذا هيني ؟

قال : لا تتهيبي ، فليس هو بفيلسوف مغلق ، ولا هو بالكاتب الذي يحوجك الى ترجمان أو مفسر ، ان حلا لك أن تقرأيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ ، وما أحسب له نظيرا في الدعابة وخفة الروح .

قالت : أصحيح ؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف ؟

قال : انه ضجر من سيدة دعية لهـا عين واحدة تتطفل على الادب فكتب عنها يقول : كل امرأة تكتب فانما تتجه باحدى عينيها الى القرطاس وبالعين الثانية الى رجل ... ما عدا فلانة طبعا ... فان لها عينا واحدة كما يعلم القراء !

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية ، وقالت : أما من جهتي أنا فاني لاقر وأقسم بين يديك وبين يدي الله أن هيني لظريف وانه لصادق ، فما تقرأ المرأة الا عن رجل أو بسبب رجل ، وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء .

وتشعب الحديث ، وتفتحت مغاليق الاسرار من الجانبين ، وفي غير مناسبة ظاهرة سألته وفي عينيها خبث كخبث الاطفال المناوئين :

كم عمرك يا همام ؟

قال همام : دعي هذه المحرجات يـا بنية . فان أبيت الا الالحاح فسأخبرك على شريطة واحدة ، وهي أن تخبريني أنت ـ بداءة ـ لمـاذا تسألين ؟

قالت : ولم ؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال ؟ على أنني لا أنوي أن أدعك تطيل التخمين ، وأريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سنة اذا كنا متفقين في نسبة السن كما اتفقنا في غيرها من المقارنات .. فانني أنـا في الثالثة والعشرين ، وينبغي أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا اليه سبع سنوات .

قال : بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين ، وأقسم لك أنني ما أسقطت يوما واحدا ، وانك أسقطت السنتين الناقصتين ! !

* * *

من الواجب أن نعرف لايام النعيم وداعا غير وداع الاسى والانين الذي اصطلح عليه شعراء الاصطلاح في بعض العصور العربية •

فمن الخيانة للسرور عند هؤلاء الناس أن تلوح له ساعة وداعه بمنديل غير مبلول ، وأن تفرغ منه شبعان راضيا عن الشبع شاكرا للزاد ، خاليا بذكرياته للتملي به والتأمل فيه •

وشعراء الاصطلاح جهلاء بالانسان لا يدرون ما الاسى ولا يدرون ما السرور • فالواقع أن الانسان ليرحب بالشبع من النعيم وهو شاكر كما يرحب بالشبع من المائدة وهو شاكر ، وترتفع المائدة فلا يحزنه أن ترتفع بعدما استوفى صنوفها وروى أحشاءه من آكالها وأشرباتها وهنأ حواسه جميعا بما استطاع أن يلتهم من دسمها وحلواها ، ومن شبع من الروضة زهرا ولونا وأريجا وظلا فلا بد أن يشوقه أن يغمض عينيه ليشبع منها خيالا ومراجعة ويضع لها صورة مجملة يتأملها ويستبقيها ، ويفسح لها مكانا من متحف النفس تأوي اليه أبد الآبدين بنجوة عن الواقع وطوارق الاحداث : انتهى السرور الظاهر فليبدأ السرور الباطن ، وذهب السرور العابر فليبق السرور الدائم ، وتم السرور الذي يملكنا ويؤثر فينا فلننظر في السرور الذي نملكه ونؤثر فيه •

وهكذا ودع همام يومه شبعان جد الشبع ، قانعا أوفى ما يكون القنوع في تركيب أبناء الفناء ، مستريحا الى الوداع كما يستريح الشاكر المكتفي لا كما يستريح السائم الملول ، وأغمض عينيه على فراشه تلك الليلة يستعيد ويستجمع ويستمرىء ويتحدى النوم وهو مقبل اليه :

أيها النوم أتحدى أحلامك أن تعطيني فوق ما أخذت اليوم في صحو اليقظة ••• وأنا كاسب الرهان على الحالين •••

* * *

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الاولى على تباعد بينهما في مبدأ الامر ، ثم على تقارب يوشك أن يكون بلا انقطاع .

الا انهما اتفقا على أن ينذرا سحابة يــوم الجمعة لخلوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق .

فيوما على رمال الهرم ، لانها تريد أن توقظ الفراعنة !

ويوما على القناطر الخيرية ، لانها تريد أن تحاسب النيل العتيق على عرائسه الغريقات .

ويوما على زورق بــين روض الفرج والروضة ، ويوما في حلوان ويوما عند آثار صقارة ، ويوما في صحراء الماظة ، ويوما في جوار عــين شمس والمطرية . فان لم تكن رياضة خلاء فعكوف في المنزل من الصباح الى المساء ، وذلك أمتع الايام .

يخلو المنزل نهارها فلا طاهي فيه ولا خادم ولا نزيل غير سارة وهمام، وقد جعلا خدمة المنزل في ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التي يتولاها الكهان ، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها وهي في يدها المكنسة وهو في يده سكينة التخريط ... أو هــي تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار ... أو هي تملأ الاطباق وهو ينقلها الى المائدة . حتى اذا حان وقت الطعام مثلت الــى جانب المائدة في وقــار وخشوع وقالت : انتهى دور الخدمة .فتفضلوا أيها السادة .

وتتسرب الى المنزل أنباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة في معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغاني ، أو يلعبان « الدومينة » قليلا وهي لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام أنها أصح الالعاب وأشدها مطابقة للحيــاة .

فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شيء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء وكل شيء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة .

أما « الدومينة » ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذي تجهله أنت وخصمك وللغيب الذي تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذي يعرفه كل من يشاء ، ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما في يديك .

قالت سارة يوما بعدما استعادته شرح « فلسفة الدومينة » للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أولا تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة ؟

قال : لا . بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته ، وانني لابحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه . فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصى معناه !

وأمثال هذه الاسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبي أباه الشيخ في دالة ومحبة ، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه ، فما كان في تلك الاسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل ، ولكن السائل والمسؤول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه ، ويتفقد فيه من يشاء ما يشاء ، ولا فضول ولا اقتحام .

لماذا هام بها ؟

حواء أخرجت من جنة ، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات ... فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر ؟ لا ندري . ولكنها هي المرأة أبدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير يعنيها ، أو يسعد بغير سعادتها ، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع . وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها ، ولم يرضها أن شاركه السعادة الوافية ، ان كان للسعادة سبب سواها .

كان همام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سارة : ان حضرت سره حضورها وان غابت لم يغضبه غيابها ، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب أنها تفرض حقا عليه ، ويتصلان وينفصلان ولا قلق في الامر ولا استطلاع ولا استكراه : لها وقتها كله وله وقته كله ، الا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السواء ، بلا اقتسام ولا جور ولا اعتداء .

غير أن « سارة » لم يعجبها هذا الجدول المترقرق المنساب وأبت الا أن تراه شلالا يعج ويثور ، ويضطرب ويمور ، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور .

كان يسألها في مبدأ العلاقة بينهما عن الموعد المقبل فتذكر له يوما ويذكر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صديق أو يوم شهود احتفال أو يوم عمل مــن الاعمال التي تشغله عــن اللقاء ، ويرجوها أن تنظر في تأجيل الموعد ، فلا يعجبها ذلك •

وكانت تستعجل الانصراف في بعض زياراتها وتعتذر اليه بموعد أو بمصلحة أو بما شابه هذه المعاذير ، فيأذن لها ولا يمسكها ، فلا يعجبها ذلــك !

وقالت له يوما بعبارة صريحة انه لو « أمرها » بالبقاء لبقيت وهي مسرورة •

وقالت له أياما أنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثيرة عنده وأن لقاءها محبب اليه مفضل لديه ، فلما قال لها انــه يفضل لقاءها على غيره اذا كان حرا في الارتباط بهذا أو بذاك ــ قالت هذه حجج يحتج بها الرجال حين لا يريدون وينبذونها حين لا يريدون ، وانه لو ترك من أجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد •

واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش في أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها • فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام في غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها • فصاحت به عابسة ما هذه ؟

وكان همام قد نسي الصورة ونسي أنها هناك • فنظر اليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة •

غير أنه لاحظ أن سارة لــم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها ، فلو كانت أجمل مما هي مائة مرة وكانت تشبه سارة في بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التي بدرت منها في صيحتها

العابسة • لكن الفتاة هيفاء ، وجميلة الهيف ، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال وقلة اعتدال ، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم •

وقــد كانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ في بدايتها وفي ابانها ، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوي على طراز لجمال الحديث ، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها •

قالت :وفيم تحتفظ بها ؟

قال : صورة فنية جميلة ، كأنها تمثال ، كأنها تحفة •

قالت وهي تنظر الــى توقيع الفتاة وخطها الركيك • ولماذا هــذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهي الراقصة الوحيدة التي راقك جمالها ؟

قال : ان كان لا يقنعك الا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس في الامر صعوبة ••• ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهبك الله من حدة الذكاء لانفت أن تغاري من صاحبة هذه الصورة وأنت ترين «أميتها» ماثلة في خطها •

قالت : أو تظن أنني أبتهج بأن تحبني لحدة ذكائي وتحب هــذه الراقصة لما ••• لما لست أدري ما أنت واجد فيها ؟

قال : أنا لا أحبها •

قالت : أصحيح ؟ اذن هل أنا في حل من تمزيق الصورة ؟

قال : لا أمنعك ولكنها خسارة •

قالت : أهي خسارة أم تخشى أن تسألك عنهــا صاحبتها ! انني لا أنافس الراقصات يا سيدي ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى ، ولكن أرجوك

أن ترد الي صورتي • فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور في مكان واحد •

فكبر الامر على همام ، وأحس لاول مرة أن فراق سارة يثقل عليه ، فقال لها : ان كان لا يريحك الا أن تمزقي الصورة فمزقيها •••

فما أمهلته أن يتم الجملة حتى قبضت على الصورة تمزقها كل ممزق كأنهما تضمر لصاحبتها ضغينة وهي لم ترها ولم تسمع باسمها ، ولا يذكر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة الا امرأة جاهلة أسلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هي الرقية التي كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم في جسمها والنكد في عيشها • فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيديا تشترك في تمزيقها •

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها ، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث اليه ، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها ، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها ••• وفرغ لها فوقع في روعه ألا يقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد ، وانقلب الجدول الهادىء المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الاسد المتحفز ، ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل • أو لانتهى كما ينتهي النهر الى مصبه في رفق وسخاوة •

* * *

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد •

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المصحوب بالتجديد والتنويع ، فان الرجل ليسره أن يستكشف المرأة ويسره ألا يزال واجدا فيها كل حين ميدانا جديدا للاستكشاف ، ويسره أن يراقب المرأة وهي

تستكشفه وتتخذ لها منسربا الى عواطفه ، وترفع من دخائله حجابا وراء حجاب ، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين ، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح الى آفاق .

فان وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسآمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام .

ان المرأة في استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدي أولا وآخرا الى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة الى تلك الرهبة ، ثم يرتع في صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها .

وان الرجل في استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الاريضة ليهتدي الى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها . فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهي تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه . ثم تصبح الروضة روضة وغابة ، وتصبح الغابة غابة وروضة ، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به اذا خرجا الى الدنيا ، ولا يشعران به وهما بنجوة منها .

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان ، بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان في نزهة طويلة ، يشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا الى ظلال الخيمة في ظلام المساء.

كان يراقبها في نفسها ويراقبها في نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو وتعبث ، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهي تلتمس الامان والعزاء ، ويرى الانسانة الفطرية وهي تطيع الغريزة وتلبس

« دورها » على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ، ويرى المرأة الذكية وهي تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة ، ويرى المرأة العصرية وهي تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان ،وتخضع لها وتنهزم أمامها في ميدان ، ويرى من واء ذلك جميعة وفي خلال جميعه المرأة الخالدة التي لا تتحول ولا تتبدل ، والانثى السرمدية التي يهمها من « الذكر » الحماية والجاه قبل كل شيء وبعد كل شيء ، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب الا لانها وجه من وجوه الحماية والجاه .

لقد أكبرته كثيرا وهي تسمع الثناء عليه في مجالس اناس من علية الناس لا يعلمون ما بينها من صلة ، ولا يستريحون اليها لو علموها .

ولقد أكبرته كثيرا وهي تقرأ له اسفار النوابغ من اساطين الاقدمين وفحول المحدثين الغربيين ، وهو يعقب على ما يسمع بكلمة هنا وكلمة هناك ، ويناقش لها ما يبدو انه حقيق بالمناقشة . وليست هي من الجهل بحيث يخفي عليها سداد مناقشاته ، وليست هي من قلة الثقة به بحيث تغلق المنافذ على ذهنها مكابرة وتقليدا كما يفعل العامة الجامدون ، وليست هي من العلم بحيث تفهم ان نوابغ الغرب كائنة ما كانت اقدارهم وبالغا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح ، بل هي نشأت نشأتها الاولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم الى مرتبة العصمة والتأليه ، فاذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرتفاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما تفعل الطفلة وهي تتفرج على منظر طريف . وجال في قلبها اكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل .

الا ان شيئا من ذلك ــ في مدى السنوات الطوال ــ لم ينعشهـا ولم يلمس كوامن انوثتها ولم يقدح[1] من سرورها به وحنينها الى جواره مثل مانعشها وسرى فيها وتجلى عليها في حادثة عرضية حدثت ذات مساء في مركبة من مركبات الاجرة بين الزمالك والجزيرة :

كانت المركبة تسير على مهل والحوذي قد غفل عن اشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس ، فصدمت واحدا من ثلاثة او اربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل في محاذاة العوامات والذهبيات ، وذلك جرم من الحوذي تضيق عنه رحمة الله ! فان كل شيء ليجوز للحوذي الغافل الا ان يصدم السادة « رجال الضبط » وهم هم اصحاب الحــول والطول والقول الفصل في الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقة وما يحملون ومن يحملون ! .. فاذا كان ذلك في أثناء « تأدية وظيفة » كما يسهل القول والاثبات فويل يومئذ للمسكين ... انه لذاهب من الدار الى النار وماله من شفيع .

وقد كان اصاب الغافل الاثيم جزاءه اليسير في سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان ، فجذبه « رجال الامن » من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مران على هذا الضرب من المصافحات ، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل ولا جواب له الا ضربات متداركات تتبارى فيها الالسنة والكفوف .

وطال الخصام ولاح لهمام أنه لا يؤذن بختام ... فلم يجد مناصا من النزول والسعي في الاصلاح . ولم يغب عن باله ان اللجاجة قد تفضي برجل الضبط « المعتدى عليه » الى كتابة محضر واستدعاء شهود ، وانه

---

(١) قدحه أخرج ناره .

سيكون لا محالة واحدا من هؤلاء الشهود • فاذا افضى الامر الى ذلك فقد كان ينوي ان يعطيهم عنوانه ان قنعوا به او يصاحبهم بعد ان يحتال في صرف سارة وابعادها عن القضية ما استطاع •

على أن المسألة لم تلجىء الى شيء من ذاك ، ولم تستغرق اكثر من دقيقة او دقيقتين ، فقد كان « رجال الضبط » ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماما بالرؤية والسماع وان لم تجمعهم به صداقة فتلطف اكبرهم وحيا هماما بلقبه دون اسمه ، واتجه الى الحوذي بعد ان صفعه الصفعة الاخيرة وأسلمه الرخصة المنزوعة ••• وهو يهنئه بالسلامة • اكراما للرجل الذي معه لا اكراما لامه وابيه اللذين من صفاتهما كيت كيت ، كما علم قبل ذلك على ما يظهر •

ولم تكن سارة من السذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة ، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعي بتدبيرها ان ساءت الجريرة وقد افهمها همام قبل نزوله من المركبة ان اتقاء المحذور سهل من « الوجهة الرسمية » • وقد سبق لهما ان تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخذون الطرقات على المارة في الضواحي البعيدة رجاء المساومة على ما يحسبونه من الفضائح الغرامية • فنظرت اليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا الا رجاء في مساومة ولا خوف من فضيحة • فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مازق مخيف والفزع من عاقبة محذورة ، وانما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهي مغمضة العينين •

فلما عاد همام الى المركبة واستوى في مكانه فيها لم تزد على ان زحفت الى جانبه واستكانت الى جواره وتطامنت في حضنه تطامن الفرخ في حضن ابيه ، وهمست تحت اذنه وهي تمسح خدها بخده ما اسعدني

بجوارك سيدي ومولاي ... وكانت تلك اول مرة دعته فيها تلك الدعوة وكان ذلك كل ما فاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت في حاجة الى ان تزيد ... فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنيا عن كل كلام .

وعرف همام انها استكشفته وطبعته في صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة تحكيه وتمثله في ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت ، واعتراضه بالاشارة ، وردوده وهو مشغول ، وردوده وهو حاضر القريحة ، وتعقد احيانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها تتكلم فيها مرة بصوتها واسلوبها ومرة بصوت همام واسلوبه ، فتجيد المحاكاة في اللهجة والتفكير اجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين ، بل يزيدها ملاحة على ملاحة

وانها لقد عرفت منه بزكانة المرأة في شهر واحد ما لم يعرفه اصدقاؤه وخلطاؤه في اعوام . فتقول له ان الزوبعة منك لا تخيف ولا تطول بمقدار ما يخيف الاستقرار الذي بطل فيه التردد وخلا من كل هياج وكل ثورة ، وتقول له : انني اذا اردت ان اهزمك لم ابرز لك بسلاح ولم البس لك شكة الحرب ،فأقودك من اذنيك .

* * *

وما زالا يتكاشفا نويتكاشفان حتى علما انهما مكشوفان لا يتواريان في جنة لا ينبت فيها ورق التين . فكان هذا التكاشف سببا ثانيا من أسباب هيام همام ، وقلما ينحصر لهيام في سببين اثنين !

نعم . فقد كانت ليهامه بها اسباب مختلفات ، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من شتى اسباب لا تتضح لها حدود .

فمن تلك الاسباب الواضحة انه كان يحس احساسا شديدا ان توديع هذه العاطفة قد يرادف في معناه توديع الحياة .

لانه تعلق بها وهو في العقد الرابع من عمره . فاذا انقطع ما بينه وبينها فمن بفتاة تخلفها في مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها ؟ واذا وجـد الفتاة فمن له بالقلب الذي يلبي دواعي الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسب المشيئة ، ويغامر اليوم في عاطفة مرجوة وقد كان بالامس في عاطفة يائسة مضيعة ؟

ان خبت هذه العاطفة فهي جذوة الغرام الاخيرة ، وعليه ان يذكيها ويرعاها كما كان الاقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة ان تنطفي فـلا يستعيدوها ، قبل ان يحذقوا صناعة الزناد والثقاب .

* * *

ومن اسباب هيامه بها الفة متغلغلة في أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق ، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق ، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه . ولمن شاء ان يزعم انه يتعاطاه وهو ساخط عليه فقصارى القول انه يتعاطاه ، وان الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة .

ومن الحق ان نذكر هنا ان الرجل يعشق الانثى في مبدأ الامر لانها امرأة بعينها : امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التي تتميز بها بين سائر النساء ، ولكنه اذا اوغل في عشقها وانغمس فيه أحبها لانها « المرأة » كلها او المرأة التي تتمثل فيها الانوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها ، فهي تثير فيه كل ما تثيره الانوثة من شعور الحياة . وأي شعور هو بعيدمن نفس الانسان في هذه الحالة ؟ ان الانوثة لتثير فيـه

شعور القوة ، وشعور الجمال ،وشعور الالم ،وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله ، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن اغوار لا يسبر مداها في النوروالظلام ، لان المرأة حين تمثل الانوثة هي مناط الخلق والتكوين ، واداة التوليد والدوام والخلود ، وهي مظهر القوة التي يبديها كل شيء في الوجود وكل شيء في الانسان .

* * *

وكذلك تجمعت أسباب الهيام من الفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق في امور غيرها ، حتى استحكمت اواصر الملازمة ، وتلاحمت وشائج الفتنة . فلما انشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ، ويتقاضاها امانة الاخلاص، لم يكن ذلك غلوا منه في تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا في تنزيه عصمتها، ولكنه حاسبها ذلك الحساب لانه حتم لا مندوحة له عنه ، ولان السكوت عنها كان اشق عليه من حسابها .

والا فماذا هو صانع ! أيفارقها ؟ ذلك عسير !

أيستبقيها على ان يكون لها وحدها ولا تكون له وحده ؟ ليس ذلك بيسير !

وهكذا يتفق ان يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة ، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين .

حُبّان

اذا ميز الرجل المرأة بين جميع النساء ، فذلك هو الحب

اذا اصبح النساء جميعا لا يغنين الرجل ما تغنيه امراة واحدة ، فذلك هـــو الحب .

اذا ميز الرجل المرأة لا لانها اجمل النساء ، ولا لانها اذكى النساء ، ولا لانها اوفى النساء ولا لانها اولى النساء بالحب ، ولكن لانها هــي هي بمحاسنها وعيوبها ، فذلك هو الحب .

وقد يميز الرجل امراتين في وقت واحد . لكن لا بد من اختلاف بين الحبين في النوع ،او الدرجة ، او في الرجاء .

فيكون احد الحبين خالصا للروح والوجدان ، ويكون الحب الآخر مستغرقا شاملا للروحين والجسدين .

او يكون احد الحبين مقبلا صاعدا ، والحب الآخر آخذا في الادبار والهبوط .

او يكون احد الحبين مغريا بالرجاء ، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة .

اما ان يجتمع حبان قويان من نوع واحد في وقت واحــد فذلــك ازدواج غير معهود في الطباع . لان العاطفة لا تقف دون المدى ولا تعرف الحدود ، واذا بلغت مداها العاطفة جبت ما سواها !

وقد كان همام يحب امرأة اخرى حين التقى بسارة في بيت ماريانا : يحبها الحب الذي جعله ينتظر الرسالة او حديث التليفون كما ينتظر العاشق موعد اللقاء ، وكانا كثير ما يتراسلان او يتحدثان ، وكثيرا ما يتباعدان ويلتزمان الصمت الطويل ايثارا للتقية واجتنابا للقال والقيل وتهدئة مــن جماح العاطفة اذا خافا عليها الانقطاع . ولكنهما في جميع ذلك كانا اشبه بالشجرتين مهما بالانسانين ، يتلاقيان وكلاهما على جذوره ، ويتلامسان باهداب الاغصان ، او بنفحات النسيم العابر من هذه الاوراق الى تلك الاوراق ...

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله الغاشقان على مسرح التمثيل، ولا يزيدان .

وكان يغازلها فتومي اليه بأصبعها كالمنذرة المتوعدة ، فاذا نظر الى عينيها لم يدر أتستزيده أم تنهاه ، ولكنه يدري ان الزيادة ترتفع بالنغمة الى مقام النشوز .

وكان يكتب اليها فيفيض ويسترسل ، ويذكر الشوق والوجد والامل فاذا لقيها بعد ذلك لم ير منهاماينم على استياء ولم يسمع منها يدل على وصول الخطاب ،وانما يسمع الجواب باللحن والايمــاء دون الاعراب والافصاح .

وربما تواعدا الى جلسة من جلسات الصور المتحركة في مكان لا غبار عليه ، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها ، ويسهبان ما احتملت الكناية الاسهاب . ثم يغيران سياق الحديث في غير اقتضاب ولا ابتسار

وكانا اشبه بالنجمين السيارين في المنظومة الواحـدة ، لا يزالان يحومان في نطاق واحد ، ويتجاذبان حول محور واحد ، ولكنهما يحذران التقارب ... لانه اصطدام !

ولم تكن هند ــ وليكن اسمها هندا ــ لتعتقد الرهبانية في همام ، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها انه معزول عن عالم النساء . غير انها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة ، وشبح غرام واحد . فان اسم النساء في هذه الحالة لا يدل على معنى ، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار .

فلما شعرت بأن النساء تحولن عنده الى امرأة لها شأن غير شؤون أخواتها من بنات حواء زارته على حين غرة في مكتب عمله ، وهي الزيارة الاولى والاخيرة من قبيلها ، ولم يكن لها مسوغ من طول الغيبة ولا امتناع الحديث في التليفون . فما شك لحظة في غرض الزيارة ولا في باعثهـا ، وتوقع منها عتبا عنيفا على اسلوبها في التعبير الصامت المبين ، ولكنه علم سلفا انها غير منصفة في عتبها ، لانه لم يختلس منها شيئا هو من حقهـا عليه . فرحب بها وابدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسؤالها عنـه ، وانصت مترقبا ... فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج :

ــ لست زائرة ولا سائلة !

قال اذن ....

ولم يتمها لانها نظرت اليه كمن يستحلفه الا يتكلم . وانحدرت من عينيها دمعتـان .

فما تمالك نفسه ان تناول يدها ورفعها الى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها، فمانعته ولم تكفف عن النظر اليه . ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة:

وهي تتمتم هامسة : دع يدي ودعني ! ثم انصرفت بعد ان سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع •

لو جاءت هذه الزيارة وهمام في بداية العلاقة بسارة لما كان بعيدا ان تقضي على تلك العلاقة ، وان ترد سارة اسما مغمورا في عامة عنوان النساء •

بيد انها جاءت وقد اوغلت العلاقة بينهما يغالها الذي لا تراجع فيه ، وصمدت على طريقها تعدو مع الايام عدوا لا تنظر فيه الى الوراء • وفسح لها الطريق ان هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضمير • لانه لم يخن هندا ولم يقصر في حقها عليه ، ولا وهم انها تغضب من امر لا عهد بينه وبينها فيه •

* * *

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الانوثة متناقضين : كلتاهما انثى لا تخرج عن نطاق جنسها ، غير انهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى احداهما ان تحل محل الثانية ، ويوشك ان تزدريها •

ماذا اقول ؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الاخرى ، ولولا انها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها ، فتسمح للتمني ان يستحيل الى نفور

فاذا كانت سارة قد خلقت وثنية في ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة في دير ، من غير حاجة الى الدير !!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود اكثر ما استطاعت ، وهذه مشغولة بان تصوغ حولها اكثر ما استطاعت من قيود ، ثم توشيها بطلاء الذهب وترصعها بفرائد الجوهر •

الحزن الرفيع والالم العزيز شفاعة عند هند مقبولة اذا لم تكن هي وحدها الشفاعة المقبولة • اما عند سارة فالشفاعة الاولى بل الشفاعة العليا هي النعيم والسرور •

تلك يومها جمعة الآلام ، وهذه يومها شم النسيم •

تلك تشكو ويخيل اليك انها ذات ارب في بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشكوى ، وهذه تشكو كما يبكي الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه مـــن الحلوى •

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى ان تكون ، وهذه مولعة بكشف نقائصها لتمسح عنها وضر الخجل والمسبة ، وتعرضها في معرض الزينة والمباهاة •

تلك لها عدة المتانة والمجاملة ، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطـــة لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت في السلك السياسي ، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديما في حاشية امير مفراح

كلتاهما جميلة ، ولكن الجمال في هند كالحصن الذي يحيط بـــه الخندق • أما الجمال في سارة فكالبستان الذي يحيط به جدول من الماء النمير ، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان ، وهو للعبور اكثر مما يكون للصد والنفور •

تلك ذات طموح وهمم ، وهذه تحسب الواقع الذي يوائمها خيرا واشهى من كل مطمع ومن كل همة •

تلك تعطيك خير ما أعطت على البعد والحيطة ، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف •

كلتاهما ذات ثقافة والمعية ، لكن ثقافة هند الى المعرفة ، وثقافـــة سارة الى الفطرة •

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الانسان ايهما اقوم في السجايا والاخلاق • ولكن الذي لا ريب فيه ولا حيرة فيه ان سارة ارجح واصلح قبل ان ينزل التكليف على ابناء آدم وحواء ، وان هندا ارجح واصلح حيثما نزل تكليف ... أي تكليف !

* * *

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت في بديهة همـام حتى احتجبت كل صورة الا هاتين الصورتين المتقابلتين : احداهما قائمة فـي محراب ، والاخرى باثقة كالزهرة من زبد العبـاب •! وتعاقب الايـام فأصبحت صورة فنية نفيسة لا تقوم بمال ومثلت الاخرى كما كانت تمثالا مـن لحـم ودم •

* * *

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند الا ان هماما يعرفها ويكبرهـا ويزورها حينا بعد حين • فكانت تبرم بهذه الزيارات ، ثم كانت تتوخى ان تغويه وتشغله في اليوم الذي يختاره لزيارة هند •• فيؤجل الموعد لانه لم يكن في الحقيقة بموعد ،ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة ومـا عندها من سرور ، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند في ذلك اليوم ، وفي كل يوم

وراح همام ينسرق من نفسه وهو يدري تارة ولا يدري تارة اخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل ، او اصبحت على الاصح ممزوجة بكل شاغل • فبعد ان كانت في بداية التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة ان حضرت ، وتغيب فيغني عنها من حضر ــ عادت وهي الواحدة وحدها لا يغني عنها سواها • وعاد همام ينظر الى النساء في الطرقات ويوشك ان يسأل جدا وصدقا : مـا بال هؤلاء ؟ ولماذا خلقن ؟ ومن ذا الذي ينظر اليهن ؟

لماذا أشك فيها ؟

اثنان لا يشكان في المرأة التي يحبانها ، وباب الشك فيها مغلـق عندهما :

شاب في مقتبل ايامه ، مخدوع في احلامه ، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية يرتفع بها الى سماء الطهر ، ويكبرها ان تخون ويكبر نفسه في الحقيقة ان يخان ! ويسمع منها انها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده انه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب ، ويجوز فيه الغلو والتزويق . ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل اليه انهما يتعاهدان على مستحيل . لانه يتمنى ، ولا يفرق بين مـا سيكون وبين ما يتمنى ان يكون .

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى ، يؤتى اليه انه حسب المرأة من أمنية ومطمع ، فلا منصرف لها عنه ، ولا معدى لها الى غيره . والا فماذا عساها ان تبغي عند غيره ؟ انـه رضى النساء من جمال واعتدال وقوة ومال . فاذا قنعت به فما هي بمظلومة ، وان تقنع به انها اذن لظالمة !

حسن ! ولكن الا يحدث في الدنيا أن تكون المرأة ظالمة ؟

كلا !! لان ذلك لا يسره !! وكفى الا يسره شيء من الاشياء حتى لا يكون ولا يجوز ان يكون !

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك

لم يكن شابا في مقتبل ايامه ، لانه جاوز الثلاثين واوشك ان يصعد الى الاربعين .

ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور ، لانه موكول الى ضروب اخرى من غرور النفوس ، مطبوع على ان لا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة على رأي انسان من النساء ، او من الرجال .

وكان قد خبر من احوال المرأة والرجل ما اقنعه ان الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان . فما من رجل كبر او صغر الا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه في جميع نواحيه او بعض نواحيه ان كان محبوبا ففي الرجال من هو احب ، وان كان مهيبا ففي الرجال من هو أهيب ، وان كان جميلا او سريا او قويا ففي الرجال من هو اجمل واسرى واقوى . ولقد تستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير ، فليس من الضروري ان تفاضل المرأة بين الحسن والصالح والاصلح ، وليس من الضروري — ان هي فاضلت — ان تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ : فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم الى الخديعة ، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق ، كما يذهب الانسان الى غدائه فيلقاه مطعم يفغم انفه ببعض روائحه فيميل اليه وقد يعافه في غير تلك الساعة .

وكان همام يعتقد ان الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب يعضضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود اليها وان شبع جوفه من اللبن

واللحم والاغذية المشتهاة • لان الوفا من السنين قد ربت اسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها ، فهو يطلبها ليجهد اسنانه وفكيه في القضم والعرق ولو لم تكن به حاجة الى اكلها

والوف من السنين قد غبرت على المرأة وهي تخاف، وتحتال وتراوغ وترائي وتلعب بمواطن الضعف في الرجل حتى اصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت في طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذاً به وشحذاً للاسنان القديمة التي نبتت عليه • ويسرهن ان يصنعن الشيء ويخفيهن ولو لم تكن بهن حاجة الى صنعه ولا اخفائه • لان المرأة من هؤلاء تشتهي العظمة بجوع عشرين الف سنة ، وتشتهي اللحم واللبن بجوع ساعات •

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره ؟ ولم يصعب عليه ان ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره ان يناله ؟

انه لم يكن يستبعد الغش والخيانة ، وليس بين الشيء الذي لا يستبعد والشيء الذي يتوقع الا خطوة وعلامة محسوسة على ان الانسان قد يتوقع الغش لفرط اشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه •

فالخزانة التي تتركها فارغة هي بعينها الخزانة التي تملأها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة ، لكنك تخشى على متانتها وهي حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهي فارغة منسية •

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه ام حنون وزوجة قالية ، فاذا تأخر عن موعد الاياب فأول ما يخطر على بال الام ان ابنها قد اصابه مكروه ، واول ما يخطر على بال الزوجة ان زوجها يعبث ويعربد،

ولا يمكن ان يكون الرجل الواحد رجلين في الرشد والحصافة والقدرة على دفع الاخطار ، وانما اختلف التوقـع باختلاف الشعور والخشية . فتتوقع الام المكروه لانها تخشى المكروه ولا تبالي سواه ، وتتوقع الزوجة العربدة تخشى العربدة ولا تبالي سواها ، ولا يسوءها ان يصاب زوجها البغيض كما يسوءها ان يصيبها في غيرتها وكرامتها الزوجية .

لهذا اصبح همام يحذر الخيانة حين اصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله ، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها ، ولم يكبح خواطره عن التمادي في الظلم لانه علم ان ضمان العدل موجود لا يغفل !! وضمان العدل ان سارة عزيزة عليه ، فما هو بمستعد للتفريط فيها تجنيا عليها ومطاوعة لوهم عارض او شبهة طفيفة ، وما هو بقادر على التفريط الا وقد اصبح وامسى وليس له عن التفريط محيد



خذوا اسرارهم من صغارهم ... وسر « سارة » انما طرق مسامع همام ـ اول ما طرقها ـ من لسان طفلها الصغير .

كانا يتنزهان يوما في ارباض القاهرة ومعها طفلها الصغير ، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان ... ثـم اتجه ـ طفرة ايضا ـ نحو امه وهو لا يدري ماذا يصنع ، فاتخذ منهـا موقف العاشق المدله وجعل يفوه بالفاظ من عبـارات المناجـاة والغزل والتحبب والتدليل لا تسمع الا بين عاشقين في خلوة غرام ، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاها من ملقن او يتلوها من كتاب ، فصحا همام من حلمه الذي كان سادرا فيه على مهل وتكاسل كأنه لم يتبين بعد معنى ما يسمع . واسرعت هي فانتهرت الطفل انتهارا شديدا وعنفت عليه وهي تبالغ في نهيه

ان يسترسل في تمثيل دوره ، وارادت ان توقع في روع همام بغيرا كترات ظاهر انها انما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذي يسرده لا لانها تكتم سرا يوشك ان يفضحه بثرثرته وهذره . فقالت : تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة ... ما ادري والله ماذا اصنع بهذا الطفل في سنه الصغيرة فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن انداده واترابه ولا هو يسلم من معاشرة هؤلاء الانداد والاتراب !

قال همام : ولكنك تعرفين انداده واترابه ، فمن منهم تحسبينه خليقا ان يعيد على مسمعه تلك العبارات ؟

قالت : ومن أين لي ان اعلم ؟ فقد يسمعونه من خادمة او خادم في أكنان الحدائق وزوايا الطريق .

قال : او هذا كلام خدم ؟ ان الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال !

فسكتت وسكت ، وما في ذهنه ذرة من الشك في ان بعضا من ذلك الكلام الذي لغط بهالطفل قد صدر من امه ... لانه كلامها ، فكيف تسرب اليه ؟ ومن اين ؟

ان هماما ليذكر جد الذكر انهما لا يتخاطبان في محضر الطفل الا كما يتخاطب الرجل والمرأة في المجلس المشهود ، وليس لسارة زوج يعيش معها ، وليس من عادة الازواج مع هذا ان يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الاطفال الصغار ، فمن اين تسربت اليه المناجاة بطرفيها ؟ من اين ؟ نعم مـن ايـن ؟ !

واقترنت تلك الظاهرة في حينها بظواهر مريبة مثلها ... « فماريانا » التي كانت لا تؤتمن على سر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد اصبحت مأمونة

الجانب مغشية الدار حتى لاحذر من التواعد لديها على غير ضرورة ؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها في غير ايامها؟ ونوازع الغرائز التي لا سلطان عليها للمراة ما بالها تتبدل ؟ ووسائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد ؟ وذلك التلطف المريب تلطف الآثم الذي يمسح حوبته بفرط المجاملة ويكفرعن خيانته الباطنة بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءها وماذا في اطوائها ؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضي في قضائه بالادانة ولكنها كافية للتشكيك في خلوص النية .

والقضاء بعد مطالب باقناع غيره محظور عليه ان يكتفي باقناع نفسه ... اما الرجل الذي ينشد الطمأنينة مع المرأة فلمن يحكم ان لم يحكم لنفسه ؟ وبأي اقتناع يدين ان لم يدن باقتناعه ؟

وراء الاكمة ماوراءها ... تلك حقيقة لا ريب فيها ، ولكن ماذا وراءها ؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل ، ولكن الا يكفي ان تكون هناك آكمة وان يكون هناك شيء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين ، ويكدر الجو بين الصفيين ؟

وجائز عند همام ان تنصرف عنه سارة الى غيره . ولكن ليس بالجائز عنده ان تستغفله لانها تتوهم في دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره !

جائز ان يكون هو وهي العوبة واحدة في يد الطبيعة التي تسوقه وتسوقها ، ولكن ليس بالجائز ان يكون هو العوبة في يدها وان تكون هي اللاعبة بلبه وولائه !

وقد نصب لقلبها الميزان الذي نصبه لقلبه في السر والعلانية ، واخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة ، واتهمها فلم يشاهد عليها

عذاب المرأة التي تفجع في حب تقابله بحب مثله ، بل كان كل ما شاهده عليها محال المتهم الذي يجهد في تفنيد تهمة ، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الادلة الدامغة .

هــل ظلمهــا ؟

يجــوز ... !

وكلما اعاد همام هذا السؤال واعاد معه هذا الجواب لمس به اغوار فتنتها واعتقد انه يخدع عقله باختياره ، ويساعدها علــى تضليل حسه ورأيه ، وانه لم يظلمها ولا افترى عليها ! ولولا ذلك لقد كــانت شبهــة اهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت في امرها وطي السؤال والجــواب عنهــا .

وخير له ان يفارقها بغير جريرة قادرا على آلام فراقها صائما عــن مسراتها ، من ان يعاشرها عاجزا عن فراقها ، باذلا كل ما عنده من اهتمام مستحقا كل ما عندها من احتقار واستغفال .

لقد سلبته الطمأنينة وكفى !

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتي !

أي نعم . انتهت المهمة ، وبطلت الرقابة ، واستراح الرقيب !

وكان «امين» موفقا في هذه المرة كل التوفيق ، لانه زود همام بالحجة القاطعة التي يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه ، كلما ساوره الندم وعزت عليه السلوى .

ولم تأت هذه الحجة الا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير ، وجهد غير قليل .

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة ؟ الم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة ؟ الم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة ؟ الم يعول كل التعويل على أن يظن اسوأ الظنون ويفرض اشنع الفروض ، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه في شأنها ولو تفتحت له ابواب المغالطة ؟

بلى كان ذلك !

غير انها كانت احلاما ، ولم تصح الاحلام الا بضعة ايام وقد صحت

الاحلام في الايام الاولى بعد القطيعة حتى ظن همام انه قد سلا ، واستقر على السلوى ، فما يبالي بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى .

على انها كانت راحة موقوتة اشبه براحة اللديغ حين ينقلب من جنب الى جنب ، وما به من نوم ولا غفوة على هذا الجنب ولا على ذاك .

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة الى شيء آخر : الى شيء غير الراحة وغير السلوى ، الى الشعور القاصم بالفراغ ، وبالحرج والضيق ونفاد الحيلة كلها في ذلك الفراغ

كل حاسة من حواسه فقدت شيئا ، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئا ، وكل مكان يغشاه فقد شيئا ، وكل سرور من مسراته او كل الم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه ، وماذا عوضها جميعا ؟ ... عوضها نقيضها الذي يلغيها عنها ، فأما غم محبوس كظيم ، واما حيرة عمياء ليس لها اتجاه واما سكون موحش بعد حركة وجيعة ، وكل اولئك في فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار .

خوى الجحيم الحي وهبط في مكانه الزمهرير الميت ، وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة .

زمهرير لا يعيش فيه الاحياء ، ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب ، فلهذا يعيش فيه من يعيش من الاحياء !

وجرب السلوى ، وما خامره الشك في انها علاج مطلوب ، وانها علاج مستطاع .

ولم لا يكون مستطاعا ان يسلو الرجل امرأة بامراة مثلها او افضل منها ؟ الا يسلو الجائع عن صفحة من الطعام بصفحة مثلها او اشهى منها؟ فلماذا يعييه ان يسلو عن المرأة بغيرها من بنات حواء ؟

ونسى همام أنه ليس بجائع وانما هو عليل مسلوب الاشتهاء ... فمن حاجته قبل ان ينظر في انتقاء طعامه ان يعيد ذوقه الى اعتداله وان يجد هذه اللذة فيما يشتهيه ، ويستوي عنده قبل ذلك اطيب الطعام واخبث الطعام ، كما يستوي الاكل والصيام .

بل نسى ان الرجل حين يحب المرأة فانما يريدها ولا يريد ما هـــو اجمل منها ، وانما يحسها ويحس بها لانها هي هي لا لانها امراة لا فارق بينها وبين سائرالنساء .

وكالنظارة التي تجلو العين لانها نظارتهـا تكون المعشوقة للعـاشق الذي عاشرها والف محاسنها وعيوبها ، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شخص مستقل « مخصوص » لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة . فلا النظارة التي هي ابعد امدا وانفس زجاجا تغني العين التي تنظر بما دونها، ولا المراة التي هي اجمل طلعة واكرم سليقة تغني لقلب الذي تعود ان يخفق لها او يخفق معها .

لا بل تكون التسلية هنا احجى بأن تنكأ الجـرح وتضاعف الحسرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة ، فالمراة المجهولة تغني عن المراة المجهولة لانك لا تعرف لها صفة تنكرها عند اختها ... اما التي « تشخصت » في حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون ان تشعر في كـل لمحـة وكل لمسة ان لهـا وجها غير وجه فلانة ، وعينا غير عينهـا ، وصوتـا غير صوتها ، وقواما غير قوامها ، واعطافا غير اعطافها ، وروحا غير روحهـا وكلاما غير كلامهـا ؟

وكيف تشعر بذلك دون ان تنقلب التسلية غصة ، ودون ان ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد ؟

كلا ! لا تسلية عن « النظارة » المضبوطة بنظارة انفس منها واقدر على التقريب والتوضيح •

ولا تسلية عن الابن الضائع بابن من صلب غيرك ولا من صلبك ، ولو كان ابر الابناء الذين ولد الآباء ، ولا تسلية عن المراة المعشوقة بامراة تفوقها ملاحة وتبرعها ذكاء ، وتبذها عندك وعند غيرك في بعض الخصال ولا في جميع الخصال •

وفي الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة ، فلا بد للقلب من فترة طويلة او قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه ، كما يعاف الطفل كل ثدى غير ثديه ، او يعاف الطير كل اليف غير اليفه ، او يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين امه وابيه •

* * *

في هذه الفترة عاد « امين » الى القاهرة في اجازة طويلة • وراى من الامسية الاولى التي قضاها مع همام اين تقف الامور كما يقول ، بغير حاجة الى افاضة شرح واطالة سؤال •

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة ، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك ! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث ان تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق ، فالقراءة لا تنفع واللعب لا يمنع الذهن ان يشرد ويتيه ، والسماع لا يطاق ،والرياضة مطلوبة مستحبة على ان تكون في غير الاماكن التي كان يطرقها همام وسارة • وهل من مكان لم يطرقاه ؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادر الهوى التي تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم اصحابهم المقربون • فكان همام

يقول : ما احسب الا انني سأكون بين الناس في بعض الايام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة ! ثم يسأل امينا : ترى كيف تقع هذه المفاجاة في فلان وفلان ؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان ؟؟

ثم يأخذان في التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان ،وانهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم !

هذا او يعمد امين الى فنون من الالاعيب الصبيانية ينفي بها الملل ويموه بها الكآبة . فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود او غير المقصود. فيجري بينهما حديث كهذا الحديث :

ـ هل انت فلان ؟

ـ نعم انا هو

ـ اواثق انت مما تقول ؟

ـ عجبا . ما معنى هذا السؤال ؟

ـ عفوا يا سيدي عفوا ... انما اردت ان اتحقق من صواب عاملات التليفون .فهل عندك الرقم المطلوب بعينه ؟

ـ نعم يا سيدي . هل من خدمة ؟

ـ بل سؤال صغير ان سمحت !

ـ تفضل

ـ أرجو ان تجيبني ولا تستغرب . هل قرأت صهاريج اللؤلؤ ؟

ـ صهاريج اللؤلؤ ما هذا ؟

ـ أي نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكري . ظننتك قد سمعت به ... اما سمعت به ؟ اما قرأته ؟

ـ بلى قرأته . فما هذه الاسئلة العجيبة ؟

ـ اذن تقرأه مرة ثانية !

ثم يلقي السماعة ، ويمضي في تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب ، وينعي على مصر والمصريين هـذه الفصول التي لا تحدث في باريس ولا لندن ولا برلين !

صبيانيات من هذا القبيل تشغل الوقت ويندر جدا أن تغصب هماما على ضحكة أو ابتسامة ، الى أن كانت ليلة من هذه الليالي المتشابهات طال فيها السأم ونزر فيهـا الكلام ورانت فيها الكآبة ، فقال أمين : مـا الرأي في استئناف الرقابة !

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر ، أو لعله قالها لدفع السآمة ، أو لعلـه قالها شوقا الى اتمام عمل بـدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغـير نتيجة ... الا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجد في معارضته كي يمهد لامين طريق التراجع ان كان قـد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبا لاطراف الحديث ، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه الا الموافقة ، وهو لا يدري من فائدة لاستئناف الرقابة الا أنه عمل لن يزيده تعبا على تعبه ، وقد يريح .

وبدأت الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة ، وتهيأت دواعيها من جهة أخرى ، وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحا كان جديرا بعناء المحاولة ، لانـه أراح هماما وأراح أمينا وصوب الضربة الى رأس الاوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها .

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعا يتكلف الحزن والاسف تكلف الناعي الذي ينقل أخبار الوفاة الـى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور .

قال همام : خير .

قال أمين : خير ، كل الخير .

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشؤوم لصاح صيحة « ارخميد » ... : وجدتها . وجدتها ! ! .. وحق له أن يصيح ، فقد كان يمتحن زيفا دقيقا لا يقل عن الزيف الذي امتحنه الرياضي العظيم !

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الاولى ، وان لم يكن همام بالحريص في هذه المرة على التفصيلات ، بعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة .

وفحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت في ميدان باب الحديد . فمشت أمام ومشت وراء ، ودارت بعينيها فيما حولها تروز الطريق وتتوقى الانظار ، فأطل رجل من سيارة وكانت واقفة بالانتظار وأشار اليها . فانفتلت الى السيارة في سرعة البرق ، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه .

قال همام : وهل تبعت السيارة ؟

قال أمين : لا . فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى .

قال أمين مستضحكا جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسري عنه ندامة هذا الفشل الصغير ، ويسره بنتيجة تعبه :

أحسنت يا سيد أمين ، أحسنت ! قد وصلنا . وصلنا وان لم نصل الى باب الدار . فاستمر على بركة كوبيد .

* * *

وانقضت أيام في مثل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا الى موت فقيدهم

في ديار الغربة ولم يبق الا أن تصل الجثة الى مقرها الاخير بعد سنوات من وقوع المصاب : لا حدة ولا حداد ولا حرارة في الانتظار • بل مسايرة للايام والحوادث الى أن تنتهي حيث يروقها الانتهاء •

ففي بعض هذه الايام كان همام يركب الترام قبل الموعد بنحو الساعة الى حيث يلقى أمينا — عشاء كل يوم — بعد رحلته اليومية المعهودة • فاذا بأمين يقفز الى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة •

فنسي همام ما كانا فيه ولـم يذكر الا نوادر أمين في الخوف مـن ركوب الترام والنزول منه وهو سائر • فليس أظرف من سهواته المحفوظة الا نوادره في خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويخشى من سيره الهلاك • فقد ولع بـه أصحابه مـن جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه فما أقلع ••• وآخر نوادره في هـذا الباب كان في خلال ذلك الاسبوع ، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه أنهم سيركبون الترام الذي يهم المسير ، ويتباطأون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر • فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك• فتركوه ووقفوا ينظرون اليه وينظر اليهم وهو لا يجسر على النزول !

وأبى أمين أن يقنع بهذا في أضاحيك يوم ، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته : مضى مع الترام الى آخر الخط ثم قضى في البحث عن أصحابه بقية الظهيرة ، وقـد كان في وسعه أن ينزل في المحطة التالية ويركب معهم القطار الذي ركبوه •• ولكن الرجل سخي بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب !

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التي ما رآها قط ولا توقعها ••• وعلم أن أمرا خطيرا لا بـد قـد جرى في الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة

النادرة ، بـل تلك القفزة المقطوعة النظير ! ولا شك أن الضحك الذي سرى تلك الساعة الى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتلقى عليها الخبر المشئوم الميمون ، المترقب بنافد الصبر ونافد الحيلة منذ شهور ، وقد كان لـه شأن أي شأن في تهوين المسألة كلها وتلطيفها وافراغها في مرحلتها الاخيرة في قالب السخر والفكاهة .

فلما جلس أمين الى جانب همام لم ينتظر سؤالا ولم يأبه للضحك الذي كان يلوح على عيني همام ، وقال في رصانة وتؤدة : انتهت مهمتي .

قال همام : لا ريب في ذلك . فان قفزتك وحدها لدليل أقوى من كل دليل . فأوجز يا صاح . أوجز ولا ضرورة للتفصيل .

قال أمين : الآن هي في مخدع مريب في بيت قريب ، تبعتها اليـه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذي يستأجره ، وعرفت أنها تغشاه من حين الى حين .

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة . أغمضهما كأنه يتحاشى النظر الى سبة شائنة ، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل في ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه . ثم أسرع فصافح أمينا وهز يده هزة الشكر والرضى والابتهاج ، وقال له : صدقت صدقت ، لقد انتهت المهمة ، فهلم نحتفل بتشييعها !

ونشط كلاهما نشاطا لم يدريا ماذا يصنعان بـه وكيف يجريانه في مجراه ، فانطلقا الى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على غير هدى ، وطفقا يطوفان ويعودان الى حيث كانا حتى صادفا اثنين مـن أصحابهما الادباء يلتمسان السهر ولا يتفقان على مكان ، فانساقوا جميعا الى نـاد متطرف على هامش الصحراء ، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقا والسيارات ذاهبة آيبة في خفة وطرب واشتياق .

ويتم التوفيق فيكون أحد الاديبين صاحبنا الذي كان أمين يختلق له الاسئلة في التليفون ، ويتم التوفيق مرة أخرى فيجري الحديث في الادب وفي النثر البليغ وفي صهاريج اللؤلؤ ... أي نعم في صهاريج اللؤلؤ بعينها، ويقول صاحبنا : لقد قرأته مرتين ! ويوشك أمين وهمام أن يسألا : أكان ذلك بعد نصيحة التليفون ؟ ولكنهما يكتفيان بالايماء ويحبسان الضحك ، ويضيفانه الى حساب السرور الخفي الذي يحتويانه منفردين .

فيم كان ذلك السرور ؟

لعله كان سرورا بتقليم مخالب العذاب التي كانت تنوشه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها .

ولعله كان سرور الرضى بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك .

ولعله كان سرور القدرة على التفريط في سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجة من ندم ... أو لم تعد مرأة من النساء بعد أن كانت ، المرأة « المخصوصة » بعاشق واحد دون سائر الرجال ؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحب الاثير التي كانت تغليها وتعلو بها في ضمير همام ؟ ألم يسقط عنها « سحر » الانفراد الذي جعلها محبوبة لا تغني عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء ؟

بلى ! كان ذلك أكبر ما سر هماما في تلك الليلة بما سمع من «بشارة» أمين ، وظل على سروره هذا أياما يترشفه ويكرع منه ولا يروي منه بالجرعة والجرعتين ، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه ، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم ، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسا باقيا الا حين انقضت اجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب الى عمله ، فقد كانا معا كالسائحين في طريق واحد

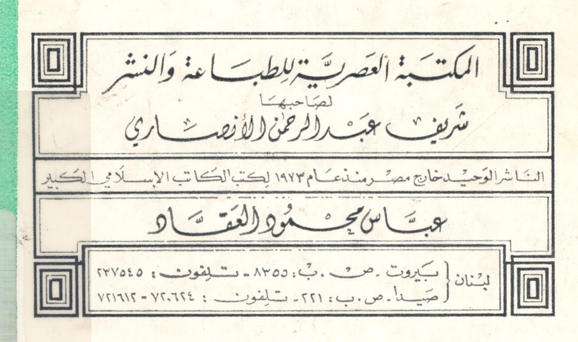
معروف المعالم والانحاء لهما على السواء ، فلما افترقا أحس همام كأنه قد ضل الطريق ، وألح عليه هذا الاحساس المبهم بضعة أيام ، ثم تراجع رويدا رويدا الى رضوان صحيح ، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح •

الا أن كوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزعاتهم ومكائدهم وكراهتهم أن يتركوا الناس هادئين وادعين ، فمن حين الى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس في صدره ليسلبه ارتياحه الى فراق سارة وقدرته على تناسيها ، فلا يفتأ يعاوده أبدا بهذا السؤال :

أليس من الجائز أنها وفت لك في أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك اياها وغيرتك عليها ؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق ؟ ! •• ! !



فهرس


المكتبة العصرية للطباعة والنشر
لصاحبها
شريف عبد الرحمن الأنصاري
الناشر الوحيد خارج مصر منذ عام ١٩٧٣ لكتب الكاتب الإسلامي الكبير
عباس محمود العقاد
لبنان
بيروت - ص . ب : ٨٣٥٥ - تلفون : ٢٣٧٥٤٥
صيدا - ص . ب : ٢٢١ - تلفون : ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢١٦١٢

